مؤسسة القديس أنطونيوس
مركز دراسات الآباء

نصوص آبائية
- ٣٦ -

الأسرار

للقديس أمبروسيوس
مع سيرة حياته

طبعة ثانية
ديسمبر ١٩٩٦م

مؤسسة القديس أنطونيوس
مركز دراسات الآباء
نصوص آبائية
- ٣٦ -

الأسرار
للقديس أمبروسيوس
مع سيرة حياته

ترجمة وإعداد
بيت التكريس لخدمة الكرازة
الطبعة الثانية - ديسمبر ١٩٩٦م

القديس أمبروسيوس
فى الأسرار

" On The Mysteries " by st. Ambrose

تُرجم هذا الكتاب عن مجلد رقم ١٠ من مجموعة

Nicene and Post - Nicene Fathers vol. 10

اسم الكتاب	: الأسرار للقديس أمبروسيوس مع سيرة حياته
اسم المترجم	: بيت التكريس لخدمة الكرازة
اسم الناشر	: مؤسسة القديس أنطونيوس - مركز دراسات الآباء
	٨ ش إسماعيل الفلكي محطة المحكمة مصر الجديدة ت : ٢٤١٤٠٢٣
الطبعة	: الطبعة الأولى نشرها بيت التكريس لخدمة الكرازة سنة ١٩٧٣م
	: الطبعة الثانية ١٩٩٦ م
اسم المطبعة	: دار يوسف كمال للطباعة ٢ ش المدارس حدائق القبة - القاهرة
	ت : ٤٨٢٧٠٧٤ - ٤٨٢٣٥٧٨
رقم الإيداع	: ١٣٠٠٨ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى	: 977 - 252 - 049 - 4



قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

مقدمة
الأسرار وحياتنا فى المسيح

توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس (أع ٢:٣٨) . هذا هو الجواب الشافى الذى أجاب به القديس بطرس الرسول على تساؤل القلوب التى نخستها كلمات الكرازة الرسولية فى يوم الخمسين داعية إياها إلى الخلاص . وإننا لنجد فى هذه الكلمات القليلة مثلاً واضحًا لحقيقة كثيرًا ما تغيب عن أذهان الكثيرين ، هذه الحقيقة هى أن الحديث عن الرب يسوع المسيح ودعوة الناس إلى التوبة والإيمان باسمه مرتبط كل الارتباط بالمعمودية وغيرها من الأسرار . لقد أوضح لنا سفر الأعمال ، المنهج الرسولى الذى به يستطيع الإنسان أن يتمتع ببركات الخلاص الذى صنعه الرب يسوع مرة على الصليب ، إذ يشهد روح الله على لسان بطرس الرسول أنه لكى يحصل الإنسان على الخلاص لابد أن يتوب ويعتمد على اسم يسوع المسيح. هذا هو بداية الطريق المؤدى إلى الحياة الأبدية .

ويشهد الروح القدس على لسان الرسول بولس أن كل من " **يعتمد بالمسيح فإنه يلبس المسيح** " (غلا٣:٢٧) . وبالمعمودية ندفن مع المسيح ونقوم معه فنصير متحدين معه بشبه موته وقيامته (رو٦:٤،٥) ، "مدفونين معه فى المعمودية التى فيها أقمتم أيضًا معه بإيمان عمل الله الذى أقامه من الأموات ، وإذ كنتم أمواتًا بالخطايا وغلف جسدكم أحياكم معه مسامحًا لكم بجميع الخطايا " (كو٢:١٢،١٣) .

واضح إذن من هذه الشهادات أن المعمودية ليست مجرد ممارسة خارجية بل إنها ترتبط بصميم حياتنا في المسيح ، إذ فيها نتحد بشخص المسيح في موته وقيامته ، وبها ندخل في علاقة جديدة مع الله إذ نصير أولادًا له لا باستحقاق منا بل بسبب لبسنا للمسيح ابن الله الوحيد واتحادنا به بالروح . هذا هو غنى نعمة الله الفائق الوصف وإحسانه ولطفه علينا في المسيح يسوع بمقتضى رحمته التي خلصنا بها بحميم الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس (تى٣:٥،٦) .

إذن فبعمل الروح القدس في المعمودية نلبس المسيح ونتحد به في موته وقيامته .

وباختصار فإننا بالمعمودية نبتدئ في الدخول في حالة اتحاد بالمسيح واندماج فيه وشركة حية معه في الروح ، ثم بعد أن يعدنا الروح ويطهرنا بالمعمودية ويجعلنا أبناء لله فإنه يأتي ويسكن في قلوبنا ، إذ أننا بعد أن نعتمد نُمسح بالروح القدس " ... فتقبلوا عطية الروح القدس " (أع٢:٣٨).
" ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا ياأبًا الآب " (غلا٤:٦) ، " **لأنَ الذى يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله .** الذى ختمنا أيضًا وأعطى عربون الروح في قلوبنا " (٢كو١:٢١،٢٢) .

هذا الاندماج وهذه الشركة مع المسيح تتم بالدفن في مياه المعمودية ولكنها أيضًا تستلزم توفر رغبة الإنسان وإرادته ، وهذا ما يعبر عنه بالنسبة للمُعمد بالإيمان والتوبة " من آمن واعتمد خلص " ، " توبوا وليعتمد كل واحد منكم " (مر١٦:١٦ ، أع٢:٣٨) .

ففى حالة الذين يعتمدون كبارًا لابد من توفر الإيمان الحى بالمسيح واستعداد التوبة كشرط سابق للمعمودية حتى أن القديس كيرلس

الأورشليمى يحذر الموعوظين (الذين كانوا على أهبة قبول المعمودية) قائلاً : " إن ظللت فى سوء استعدادك فالذى يكلمك ليس مسئولاً ، ولكن لاتنتظر قبول النعمة ، لأنك ستنزل فى الماء ولكن الروح سوف لايقبلك . فإذا كان أحد مجروحًا فليضمد جروحه وإذا كان أحد ساقطًا فليقم " (١) .

أما فى حالة الذين يعتمدون أطفالاً (المولودين من أبوين مسيحيين)، فإن الأشبين (الوصى) يتولى مؤقتًا نيابة عن الطفل جحد الشيطان والاعتراف بإيمان المسيح والتعهد بالحياة فى محبته وطاعته ، على أساس أنه عندما يكبر الطفل المُعمد يجب أن يعرف بواسطة اشبينه بما جرى نيابة عنه فى طفولته أى يجب أن يكون للإنسان بإرادته وحريته حالة الإيمان والسير وراء المسيح إن أراد أن يكون له نصيب وشركة مع المسيح هنا فى غربة هذا الدهر وفى دهر الحياة الأبدية . أو بمعنى آخر لابد أن يستمر لابسًا للمسيح بإرادته " البسوا الرب يسوع المسيح " (رو١٣:١٤) . هذا مايحتاجه كل من اعتمد طفلاً لكى يتمتع الآن بالتجديد الذى سبق أن ناله بعمل الروح القدس فى المعمودية .

فعلى كل مسيحى أن يراجع نفسه الآن هل هو فى شركة مع المسيح أم أن أنه منفصل ومبتعد عنه بقلبه وروحه ، لأن ابتعادنا عنه وسلوكنا بحسب الجسد وبحسب العالم يعنى أننا نجهل أونتجاهل عهد معموديتنا ، ولكن إن رجعنا إليه بقلب صادق فى يقين الإيمان وعزم التوبة فإنه يعيدنا من جديد إلى حالة الشركة معه والتمتع بمحبته أى يجعلنا نلبسه من جديد ، لأنه مشغول بنا ومشتاق إلينا حتى إن كنا قد بددنا كنوز الروح فى كورة الخطية البعيدة .

---

(١) كيرلس الأورشليمى - تعاليم للموعوظين - المقدمة - فقرة ٤

هذا هو ماجعل الكنيسة تنظر إلى **سر التوبة كمعمودية ثانية** ، إذ بالتوبة **يستعيد الإنسان قوة تجديد المعمودية** التى فقدها بالبعد عن المسيح والسلوك فى الخطية وشهوات العالم .

لذلك فبعد التوبة الصادقة **يرجع الإنسان إلى حالة التمتع بسكنى الروح القدس فيه** (الذى سبق أن ناله فى سر المسحة) ـ والتى حُرم منها طوال فترة تغربه عن المسيح ـ فيشتعل فيه النور الإلهى من جديد ويُشرق فى إنسانه الباطن . لكن الحياة الجديدة فى المسيح التى ننالها كبذرة حية فى المعمودية والتى نستعيدها بالتوبة لاتتوقف عن النمو ، لذلك يلزم للإنسان السائر فى طريق الملكوت أن يثبت فى المسيح ويستمر **لابسًا إياه كل الحياة** . لابد للمُعمد أن يطلب ما فوق **ويهتم بما فوق** " إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا مافوق ، حيث المسيح جالس .. اهتموا بما فوق لابما على الأرض لأنكم قد متم .. " (كو٣: ١، ٢، ٣) . هذه هى الشهادة الصحيحة على إخلاصه لعهد معموديته . لابد أن **يهتم بما فوق وأن يموت إراديًا عن محبة العالم . يجب أن يضع المسيح أمامه كهدفه وغايته دائمًا ويسلك على هذا الأساس تابعًا سيده ومخلصه حاملاً الصليب كل يوم .** إن معموديتنا معناها إننا **صرنا من فوق ، من السماء لامن هذا العالم ،** فلنربط قلوبنا **بمحبة وإخلاص شديد للمسيح ونسلك** فى الطريق المضمون الذى به نحيا إلى الأبد معه . وهو قد رتب لنا مايلزمنا فى الطريق إذ اعطانا **غذاء وقوة لحياتنا الجديدة** فى كلمة الإنجيل وفى جسده ودمه الذى سلمه للكنيسة **لنتحد به فنحيا بحياته الإلهية** . واعطانا وصية السهر والصلاة فى كل حين ، والوصية الجديدة " أن نحب بعضنا بعضًا كما أحبنا" كل هذه اعطاها لنا لنتسلح ونتقوى بها فى الطريق ونحيا بقوته ،

وروحه القدوس الساكن فينا مستعد دائمًا للعمل فينا ومعنا لنتقوى حسب شدة قوته .

بهذه الوسائل والمجارى التى تتدفق **منها نعمة الروح القدس** ، والتى **فيها يعطينا الرب ذاته** بصورة متجددة لنلبسه ونتحد به أكثر فأكثر تكون لنا القدرة على الجهاد فى طريق الرب حتى الدم ، مادام الهدف أمام قلوبنا لايتغير . هذه هى العلاقة بين الأسرار وبين جهادنا الروحى . إننا لانجاهد بقوتنا ، نحن لسنا وحدنا فى الطريق ، إن روح الرب فينا ومعنا " يمكث معكم ويكون فيكم " (يو ١٤: ١٦، ١٩) .

الروح القدس المنبثق من الآب والمُرسل للكنيسة بالمسيح يوم الخمسين والعامل إلى الآن فى المؤمنين الحقيقيين هو يعطينا أن نتذوق منذ الآن بعين الإيمان قوة الدهر الآتى ، فبنعمة الملكوت الآتى نستطيع ونحن أمام مائدة الرب أن نرى فى الخبز المكسور جسد المسيح الحى ، الذبيحة التى تُحيى الكل ، الحمل القائم فى وسط عرش الله كما رآه يوحنا فى الرؤيا ، وبنعمة الملكوت الآتى نستطيع أن نشعر بأن فى الكأس المقدسة ، الدم النابع من جنب المخلص ، والذى به دخل إلى الأقداس السماوية فوجد لنافداءًا أبديًا (عب٩: ١٢) ، حتى إن كانت العين الجسدية لاتستطيع أن ترى إلاّ خبزًا عاديًا ومشروبًا عاديًا . وبعمل الروح فينا الذى يغيرنا ويحولنا إلى طبيعة المسيح ـ طبيعة المحبة ـ نستطيع أن نرى فى إخوتنا وجه المسيح حيث لا ترى عين الجسد سوى وجه اللحم من أجل اللذة أو الغضب .

كل هذا يمكن أن نتمتع به لأننا بقيامة المسيح التى نشترك فيها بالمعمودية نشهد عجائب الروح الذى يُغير العالم من

الداخل ، الروح الذى لايعرفه العالم ولكن يعرفه جميع الذين حياتهم مستترة مع المسيح فى الله (كو٣:٣) .

بقوة هذا الروح الإلهى نحن نجاهد ونسير فى الطريق فنزداد اتحادًا بالمسيح كلما سرنا معه ، واضعين أمام قلوبنا يوم مجيئه المجيد السعيد على السحاب ليأخذنا معه ، كغاية ورجاء نتطلع إليه باشتياق وحنين وثقة ، وكلما أكلنا جسده وشربنا دمه باستعداد فإننا نتذكر العهد الذى أقامه بيننا وبينه بدم صليبه مجددين التعهد فى كل مرة أن نثبت فى محبته ، مُخبرين بموته معترفين بقيامته، ونذكره إلى أن يجيئ (١كو١١:٢٦،القداس الإلهى).

أما إخوتنا الذين يشتركون معنا فى الإيمان بربنا يسوع المسيح ولكنهم لايشتركون معنا فى الإيمان بفاعلية الروح القدس فى الأسرار فنحن يؤلمنا أن يحرموا أنفسهم من هذه الكنوز الإلهية ، ولكننا لانرى أن علاج الأمر يكون بالدخول فى مناقشات جدلية معهم لأن المسألة ليست نظريات وبراهين عقلية بل مسألة رؤية وإيمان ، فإن الإيمان نفسه هو برهان الأمور التى لاتُرى (عب١١:١) . ولكن إن كان أحد يبحث عن الحق بإخلاص وتهمه الحقيقة فى ذاتها ، ومع هذا لم يكتشف بعد حقيقة الأسرار كما استلمتها الكنيسة منذ العصر الرسولى ، مثل هذا نقول له بلسان أسقف أوخريدا (اليوغسلافى) فى حديثه الذى وجهه إلى البروتستانت فى مؤتمر لوزان عن أسرار الكنيسة " **من شاء أن يسأل فليسأل الله بالصوم والصلاة والدموع، فيكشف له الحقيقة التى كشفها دائمًا للقديسين ...** فكل ما قلناه عن الأسرار المسيحية العظمى ليس هو رأينا (فلو كان رأينا فلا قيمة له) بل هو اختبار الرسل فى الأزمنة القديمة والقديسين على مر العصور حتى أيامنا الحاضرة ، لأن كنيسة الله لاتحيا بالظن ولا بالرأى ،

بل بخبرة القديسين كما فى البداية هكذا حتى أيامنا هذه . فقد يكون رأى أذكياء البشر غاية فى الحذق وخاطئًا فى الوقت ذاته بينما خبرة القديسين صحيحة دائمًا لأنها الله ذاته الصادق بالنسبة إلى ذاته فى قديسيه " (٢) .

✞✞✞✞✞✞✞

ومقالة القديس أمبروسيوس عن الأسرار التى نقدمها فى هذا الكتاب هى مثل لخبرة القديسين عن الأسرار وهى تتمشى مع نفس الطريقة الرسولية التى لاتفصل بين الأسرار وبين الحياة فى المسيح ، إذ أنه يقدم فيها تعليمًا لبنيان الموعوظين والمعتمدين حديثًا ، فقد كان آباء الكنيسة مكملين لعمل الرسل فى بنيان نفوس المؤمنين بكلمة التعليم بقوة الروح العامل فيهم .

وهذا التعليم قدمه القديس أمبروسيوس لشعبه خلال فترة الصوم الأربعينى المقدس كتهيئة لمعمودية الموعوظين التى كانت تتم عادة فى نهاية الصوم المقدس حتى يتمكن المُعمدون من الاشتراك مع الكنيسة فى نور وفرح قيامة المسيح .

نرجو أن نعتبر أنفسنا مع هؤلاء المستمعين . ونعيش بصورة حية متجددة فى قوة المعمودية حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضًا فى جدة الحياة .

حلوان ١٩٧٣م **بيت التكريس لخدمة الكرازة**

---

(٢) هذا جزء من الحديث الذى وجهه الأسقف نيقولاوس فليمروفتش متروبوليت أوخريدا إلى المندوبين البروتسانت فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٧ باعتباره أحد المندوبين الأرثوذكس .

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب " الأسرار للقديس أمبروسيوس مع ترجمة لسيرة حياته " فى سنة ١٩٧٣ م نشرها بيت التكريس لخدمة الكرازة . والآن تقوم مؤسسة القديس أنطونيوس بنشر هذه الطبعة الثانية كما هى . ولإلهنا الثالوث القدوس المحبة كل مجد وسجود الآن وإلى الأبد آمين .

٢٩ بابة ١٧١٣ ش
٨ نوفمبر ١٩٩٦ م
الموافق تذكار
شهادة القديس ديمتريوس من تسالونيكى

مركز دراسات الآباء
عنه
دكتور نصحى عبد الشهيد



القديس أمبروسيوس فى الأسرار

الفصل الأول

مقدمة (١) :

كنا نتكلم يوميًا فى مواضيع تتعلق بالسلوك الخُلقى ، عندما كـانت تُقرأ أعمال الآباء البطاركة ، أو وصايا سفر الأمثـال حتـى إذا ما تعلمتم وتثقفتم بها تنمون فى عادة سلوككم فى طرق الأقدمين والسير فى دروبهم ، وتطيعون الوصايا الإلهية ، حتى إذ قد تجددتم بالمعمودية فإنكم تتمسكون بطريقة الحياة اللائقة بالذين اغتسلوا .

وينبهنا الوقت الحاضر أن نتكلم عن الأسرار ، وأن نوضح المعنى الذى تحمله هذه الأسرار ، تلك التى لو كنا قد استحسنا أن نعلمها قبل المعمودية لأولئك الذين لم يكونوا قد نالوها بعد ، لكنا نعتبر مسيئين للأسرار أكثر من كوننا مصورين لها . وحينئذ يكون هناك تعليل آخـر ، وهـو أن نـور الأسرار نفسه سيشع بتأثير أقوى على أولئـك الذيـن يتوقعون عدم إدراكها مما لو كان هناك شرح سابق .

افتحوا إذن آذانكم واستنشقوا الرائحة الذكية للحياة الأبدية التـى نُفخت فيكم بواسطة نعمة الأسرار التـى أظهرناها لكم عندما كنا نحتفل بسر الانفتاح (٢) . وقلنا : " أفثا أى انفتح " (مر٧:٣٤) ، حتى أن من جاء باحثًا عن السلام ينبغى أن يعرف عن ماذا سئل وأن يتذكر بماذا أجاب .

---

(١) هذه العناوين ليست فى الأصل وقد وضعت للتوضيح .

(٢) هذا الانفتاح كان عملاً رمزيًا كما هو موضح فى الفصل التالى ، والمعروف أنه بل أصبعه باللعاب ولمس أذن الموعوظ قائلاً " أفثا "

استخدم المسيح هذا السر في الإنجيل كما نقرأ عندما شفى الأصم الأبكم ولكنه لمس الفم لأن ذاك الذى شُفى كان أبكمًا وكان رجلاً . فمن جهة النقطة الأولى أنه يفتح فمه برنين الصوت الموجه نحوه ، ومن جهة ملاحظة النقطة الأخرى أن هذه اللمسة كانت تناسب أن توجه لرجل ولكنها لم تكن لتناسب إمرأة .



الفصل الثانى

واجب المعتمد فى ممارسته للسر :

بعد ذلك فتح لكم قدس الأقداس ودخلتم فى قدس التجديد ، فتذكروا ما سئلتم عنه وبماذا أجبتم . لقد جحدتم الشيطان وأعماله ، والعالم بكل تنعماته وملذاته ، ولقد حُفظ ما نطقتم به لافى قبور الأموات بل فى سفر الحياة .

لقد رأيتم حينئذ الشماس ، ورأيتم الكاهن ، ورأيتم رئيس الكهنة [أى الأسقف] فلا تهتموا بالمظاهر الجسدية بل بنعمة الأسرار ، لقد تكلمتم فى حضرة الملائكة كما هو مكتوب : " لأن شفتى الكاهن تحفظان معرفة ومن فمه يطلبون الشريعة لأنه رسول (ملاك) رب الجنود " (ملا٢:٧) . فليس هناك مجال للخداع أو الإنكار ، أنه ملاك يعلن ملكوت المسيح والحياة الأبدية . فيجب أن يكرم منكم ليس باعتبار مظهره بل لأجل عمله هذا ، فقدروا ما سلمكم إياه ، وتفكروا فى منهج الحياة الذى أعطاه لكم ، واعتبروا وظيفته .

لقد دخلتم إذن لكى تميزوا عدوكم الذى كان عليكم أن تجحدوه كأنكم فى مواجهته ، ثم اتجهتم إلى الشرق ، لأن من يجحد الشيطان يتحول إلى المسيح وينظره مواجهة .

الفصل الثالث

حضور الرب فى المعمودية :

ماذا رأيتم ؟ ماء بالتأكيد ، ولكنه ليس ماء فقط ، لقد رأيتم الشمامسة يخدمون هناك والأسقف يسأل أسئلة ويقدّس ، وأول كل شئ فإن الرسول قد علمكم أن لاتهتموا بالأشياء " التى تُرى بل التى لاتُرى ، لأن التى تُرى وقتية وأما التى لاتُرى فأبدية " (٢كو٤:١٨) ، لأنكم تقرأون فى مكان آخر: " لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته " (رو١:٢٠) ، لذلك يقول أيضًا الرب نفسه : "إن كنتم لاتؤمنون بىّ فآمنوا على الأقل بالأعمال " (يو١٠:٣٨) . آمنوا إذًا أن حضور اللاهوت هو هناك ، هل تؤمنون بالعمل ولاتؤمنون بالحضرة ؟ فمن أين يبدأ العمل مالم تسبقه الحضرة ؟

عمل الروح فى القديم :

فتأملوا فى قدم الإشارة إلى هذا السر حتى فى بدء العالم نفسه ، ففى البدء عندما صنع الله السموات والأرض " كان الروح يرف على وجه المياه " (تك١:٢) ، فذاك الذى كان يرف على المياه ألم يكن يعمل فى المياه؟ بل لماذا أقول "يعمل" ؟ فقد كان يرف باعتباره حاضرًا ، ألم يكن يعمل ذاك الذى كان يرف ؟ تذكروا أنه كان يعمل فى صنع العالم إذ قال النبى : " بكلمة الرب صُنعت السموات وبروح فيه كل قواتها " (مز٣٣:٦) وكل من هذين النصين يعتمد على شهادة نبى ، فموسى يقول أنه كان يرف وداود يشهد أنه كان يعمل .

خذوا شهادة أخرى . كل بشر فسد بآثامه ، يقول الله : " لايبقى روحى بين الناس لأنهم بشر " (تك٦:٣) ، حيث يوضح الله أن نعمة الروح تتباعد

بسبب الدنس الجسدى ونجاسة الخطية الشنيعة ، التى بسببها أرسل الله الطوفان رغبة منه فى استكمال ما كان ناقصًا وأمر نوحًا البار أن يدخل الفلك . وإذ انتهى الطوفان أرسل نوح أولاً غرابًا فلم يعد ، ثم أرسل حمامة عادت بغصن زيتون . إنكم ترون الماء وترون **الخشب** (خشب الفلك) وترون **الحمامة** فهل تقفون حيارى أمام السر ؟

إن الماء هو الذى يغمر فيه الجسد حتى تغسل فيه كل خطية جسدية ، ويدفن فيه كل شر ، **والخشب** هو الذى عُلق عليه الرب يسوع عندما تألم من أجلنا ، **والحمامة** هى التى على هيئتها نزل الروح القدس ـ كما قرأتم فى العهد الجديد ـ ذاك الذى يهبكم سلام النفس وهدوء الفكر ، والغراب هو رمز الخطية التى تذهب ولاترجع إذا حُفظ فيكم البر فى الداخل وفى الخارج .

وهناك أيضًا شهادة ثالثة ، إذ يعلمنا الرسول : " لأن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة ، وجميعهم اجتازوا فى البحر ، وجميعهم اعتمدوا لموسى فى السحابة وفى البحر " (١كو١٠: ١، ٢) بل يقول موسى نفسه فى تسبحته : " أرسلت روحك فغطاهم البحر " (خر١٥: ١٠) . إنكم تلاحظون أن المعمودية المقدسة سبق الرمز إليها حينئذ فى ذلك الخروج الذى للعبرانيين ، إذ عندما قتل المصرى هرب العبرانى ، لأنه ما الذى نتعلمه يوميًا أيضًا فى هذا السر إلاّ أن الأثم قد أُبتلع ، والخطية أُبطلت ، أما الفضيلة والطهارة فتبقيان بلا ضرر ؟!

إنكم تسمعون أن آباءنا كانوا تحت السحابة وأنها سحابة لطيفة تلك التى أطفأت حرارة الشهوات الجسدية . هذه السحابة اللطيفة تظلل أولئك الذين يزورهم الروح القدس . وأخيرًا حلت على العذراء وقوة العلى ظللتها

٦

(لو ١:٣٥) عندما حملت الفداء لجنس البشر ، وتلك الأعجوبة كانت قد صُنعت فى رمز بواسطة موسى ، فإذا كان الروح حينذاك فى الرمز ، أفلا يكون حاضرًا فى الحقيقة نفسها إذ يقول لنا الكتاب : " لأن الناموس بموسى أُعطى أم النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا " (يو ١:١٧) .

كانت مارة عين ماء شديدة المرارة ، فلما طرح فيها موسى الشجرة أصبحت مياهها عذبة . لأن الماء بدون الكرازة بصليب الرب لافائدة منه للخلاص العتيد ولكن بعد أن تكرس بسر صليب الخلاص يصبح مناسبًا لاستعماله فى الجرن الروحى ، وكأس الخلاص ، إذ أنه كما ألقى موسى ـ النبى ـ الخشب فى تلك العين هكذا أيضًا الكاهن ينطق على جرن المعمودية بشهادة صليب الرب فيصبح الماء عذبًا (من جهة نفعه الروحى) بسبب عمل النعمة ...

إذن فلا ينبغى أن تثقوا كلية فى عيونكم الجسدية ، فغير المنظور يرى فى الحقيقة أكثر من المنظور ، لأن ما يُرى هو زمنى ، أما الذى لايُرى فأبدى ذاك الذى لايدرك بالعين بل بالقلب والروح .

أخيرًا فلتتعلموا دروسًا من الملوك ، فنعمان كان سريانى الجنس ، وقاسى من مرض البرص ولم يستطع أن يتطهر بأى وسيلة ولكن فتاة من الأسرى قالت له يوجد نبى فى إسرائيل يستطيع أن يطهره من البرص ، فأخذ معه ذهبًا وفضة وجاء إلى ملك إسرائيل ، ولما سمع ذلك الملك بسبب مجيئ نعمان مزق ثيابه قائلاً إن هذه فرصة يدبرها ملك آرام ضده حيث أن ما طُلب منه ليس فى متناول يد الملوك . ولكن إليشع أرسل كلمة إلى الملك لكى يرسل السريانى إليه حتى يعرف أن هناك إله فى إسرائيل . وعندما جاء ، أمره أن يغطس سبع مرات فى نهر الأردن . فبدأ يفكر فى

نفسه أن هناك فى وطنه مياه أفضل وكثيرًا ما استحم فيها ولم يطهر من برصه ، ولذلك لم يطع وصية النبى ، ولكن بنصيحة وإلحاح خدامه رضخ وغطس (فى الأردن) ، وإذ طهر حالاً فهم أن الإنسان يطهر ليس بالمياه بل بالنعمة .

فافهموا الآن من تلك الفتاة الصغيرة بين الأسرى .. إنها الجماعة التى جُمعت من الأمم ، إنها كنيسة الله التى كانت مستعبدة قديمًا فى أسر الخطية عندما لم تكن لها حرية النعمة ، التى بواسطة تدبيرها سمع الناس الأغبياء من الأمم كلمة النبوة التى كانوا يشكون فيها قبلاً ، ولكن بعدما آمنوا أنها ينبغى أن تُطاع ، اغتسلوا من كل دنس للخطية .

إن نعمان شك قبل أن يبرأ ، أما أنتم فقد برأتم فلاينبغى إذن أن تشكّوا ... !



الفصل الرابع

عمل الروح فى الماء :

إن السبب الذى من أجله أخبرتم قبل ذلك أن لاتثقوا فقط بما رأيتم ، هو حتى لاتقولوا ربما يكون هذا هو ذلك السر العظيم : " الذى لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر " (١كو٢:٩) .إننى أرى ماء تعودت أن أراها كل يوم ، فهل لهذا الماء أن يطهرنى الآن وهو الذى كثيرًا ما اغتسلت به دون أن يطهرنى ؟ بهذا ينبغى أن تتذكروا أن الماء لايطهر بدون الروح .

لذلك فإننا نقرأ أن الشهود فى المعمودية : الماء والدم والروح هم واحد (١يو٥:٧) ، لأنك إذا انتزعت واحدًا منها لما وُجد سر المعمودية . لأنه ما هو الماء بدون صليب المسيح ؟ عنصر عادى بدون أى فعل سرى ، كما أنه لايوجد سر التجديد بدون ماء ، " لأنه إن كان أحد لايولد من الماء والروح لايقدر أن يدخل ملكوت الله " (يو٣:٥) . والآن حتى الموعوظ يؤمن بصليب الرب يسوع الذى به قد خُتم هو أيضًا ، ولكنه إن لم يعتمد باسم الآب والابن والروح القدس فلا يمكن أن ينال غفران الخطايا ولاأن يحصل على هبة النعمة الروحية .

ولهذا فإن ذلك السريانى غطس نفسه سبع مرات (٢مل٥:١٤) تحت الناموس ، وأما أنتم فقد اعتمدتم باسم الثالوث . تذكروا ما فعلتم ، فإنكم اعترفتم ، واعترفتم بالابن ، واعترفتم بالروح القدس . لاحظوا جيدًا النظام فى هذا الإيمان : لقد متم عن العالم وقمتم ثانيةً لله ، وإذ دُفنتم بالنسبة للعالم فى ذلك العنصر (الماء) ، ومتم عن

الخطية فقد قمتم ثانية للحياة الأبدية ، فآمنوا إذًا أن هذه المياه ليست خالية من القوة .

لذلك كُتب : " أن ملاكًا كان ينزل أحيانًا فى البركة ويحرك الماء ، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أى مرض اعتراه " (يو٥:٤) . هذه البركة كانت فى أورشليم حيث كان يبرأ فيها واحد كل عام ، ولكن لم يكن أحد يبرأ قبل أن ينزل الملاك . بسبب أولئك الذين لايؤمنون كان الماء يتحرك كعلامة تدل على أن الملاك قد نزل . كانت عندهم علامة وأنتم عندكم إيمان ، لأولئك نزل ملاك ولكم أُرسل الروح القدس ، لأجل أولئك تحركت المخلوقات ، ولأجلكم رب المخلوقات المسيح نفسه يعمل ...

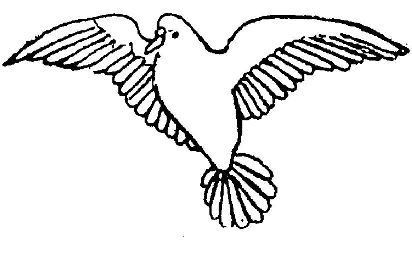
حينذاك شُفى إنسان واحد والآن أصبح الكل معافى ، أو بأكثر تدقيق المسيحيون فقط ، لأن الماء عند البعض قد يكون خادعًا (أنظر إر١٨:٥)، فمعمودية غير المؤمنين لاتشفى بل تنجس . فاليهودى يغسل الأوانى والكئوس وكأن الأشياء غير العاقلة لها إمكانية الإثم أو النعمة ، ولكن هل تغسلون أنتم تلك الكأس الحية التى لكم ، حتى تشع فيها أعمالكم الصالحة ويسطع فيها مجد نعمتكم . لأن تلك البركة كانت مثالاً حتى تؤمنوا أن قوة الله تحل على هذا الجرن (المعمودية) ... !

ليس لىّ إنسان :

وأخيرًا كان ذلك المفلوج ينتظر إنسانًا ، وأى إنسان سوى الرب يسوع الذى وُلد من العذراء ، الذى بمجيئه ـ لم يعد ذلك الظل الذى يشفى الناس واحدًا فواحدًا بل الحق الذى يشفى الجميع ، هذا الذى كان نزوله منتظرًا إذ ذاك ، والذى قال عنه الآب ليوحنا المعمدان : " الذى ترى الروح نازلاً ومستقرًا عليه فهذا هو الذى يُعمد بالروح القدس " (يو١:٣٣) . ويوحنا شهد له

وقال: " رأيت الروح نازلاً من السماء مثل حمامة ومستقرًا عليه " (يو ١:٣٢) . ولماذا أُرسل الروح مثل حمامة إلاّ لكي تروا ولكي تعرفوا أن تلك الحمامة التي أطلقها نوح من الفلك كانت مثالاً لهذه الحمامة فتتعرفوا على علامة السر ؟

فربما تعترضون بالقول : أن الحمامة التي أُطلقت كانت حقيقة وأن الروح نزل مثل حمامة ، فكيف نقول إن الرمز كان هناك والحقيقة هنا حيث إنه مكتوب في اليونانية أن الروح نزل مثل حمامة ؟ ولكم هل يوجد ما يُعتبر حقيقيًا مثل اللاهوت الذي يمكث إلى الأبد ؟ فلا يمكن أن يكون المخلوق هو الحقيقة وإنما هو مثال فقط لأنه سهل الفناء والتغير . وهكذا أيضًا بساطة أولئك المُعمدين ينبغي أن تكون لا في المظهر بل في الحقيقة ، فإن الرب يقول :" كونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام " (مت١٠:١٦)، لهذا فهو قد نزل مثل حمامة حتى ينصحنا أن تكون لدينا بساطة الحمام ، بل إننا نقرأ عن المثال أنه يحمل الحقيقة فيما يخص المسيح : " ووجد في الهيئة كإنسان " (في٢:٨) . وفيما يخص الله الآب " ولارأيتم هيئته " (يو ٥:٣٧) .



الفصل الخامس

آمنوا بعمل الله الخفى :

هل هناك إذًا أى ثغرة للشك عندما ينادى الآب من السماء ـ بحسب رواية الإنجيل ـ ويقول : " هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت " (مت٣:١٧) ، وعندما يتكلم الابن أيضًا ذاك الذى أظهر الروح القدس ذاته عليه مثل حمامة ؟ وعندما يتكلم الروح القدس أيضًا الذى نزل عليه على هيئة حمامة ، وعندما يتكلم داود أيضًا : " صوت الرب على المياه ، إله المجد أرعد ، الرب على المياه الكثيرة " ؟ (مز ٢٩:٣) . وعندما يشهد الكتاب أنه عندما صلى يربعل نزلت نار من السماء (قض٦:٢١) ، وأيضًا عندما صلى إيليا نزلت نار وقدست الذبيحة ؟(١مل١٨:٣٨) . لاتنظروا إلى استحقاقات الأشخاص بل إلى وظيفة الكهنة ، أو إذا نظرتم إلى الاستحقاقات فاعتبروا الكاهن مثل إيليا . تأملوا فى فضائل بطرس أو بولس اللذين سلّمانا هذا السر الذى تسلّماه من الرب يسوع . إلى أولئك (قديمًا) أُرسلت نار منظورة حتى يؤمنوا ، ولكن لأجلنا نحن الذين نؤمن يعمل الرب بطريقة غير منظورة ، لأجلهم حدث ذلك كرمز أو إشارة أما لأجلنا فللتحذير (١) . آمن إذًا أن الرب **يسوع يكون حاضرًا عند دعاء الكاهن** ، لأنه قال : "حيثما يكون أثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون أنا أيضًا " (مت١٨:٢٠) . فبقدر ماتوجد الكنيسة ، وحيثما توجد أسرار الرب بقدر ما يتعطف ويتفضل بالحضور ... ؟

(١) يُقصد التحذير من عدم الإيمان .

الإيمان بالاقانيم بالتساوى :

لقد غطستم إذاً (فى المـاء) فتذكروا مـا أجبتم بـه علـى الأسئلة ، (إذ اعترفتم) أنكم تؤمنـون بـالآب ، وأنكم تؤمنـون بـالابن ، وأنكم تؤمنــون بالروح القدس . لم يكن الاقـرار أنكم تؤمنـون بـأقنوم أعظـم وأقنـوم عظيـم وأقنوم أقل عظمة ، ولكنكم ارتبطتم بنفس التـأكيد ، بـاعلان صوتكم أنكم تؤمنون بالابن بنفس إيمانكم بـالآب ، وأنكم تؤمنـون بـالروح القدس بنفس إيمـانكم بـالابن بإستثناء واحـد، هـو أنكم تعترفون أنكم ينبغـى أن تؤمنـوا بصليب الرب يسوع وحده .



الفصل السادس

مسحة الروح :

بعد ذلك صعدتم إلى الكاهن ، فتأملوا ماذا حدث بعد ذلك ، أليس هذا ما قال عنه داود : " مثل الطيب على الرأس النازل على اللحية لحية هارون " (مز١٣٣: ٢) ، هذا هو الطيب الذى قال عنه سليمان : " اسمك دهن مهراق لذلك أحبتك العذراى " (نش١: ٣) . كم نفسًا متجددة في هذا اليوم أحبتك أيها الرب يسوع وقالت : " أجذبنا وراءك فنسعى إلى رائحة ثيابك " (نش١: ٤) حتى أنها تتشرب برائحة قيامتك !

تأمل الآن لماذا حدث ذلك ، لأن " الحكيم عيناه فى رأسه " (جا٢: ١٤) ، لذلك ينزل الطيب على اللحية أى على جمال الشباب ، ولذلك فنحن ـ لحية هارون أيضًا ـ نصير جنسًا مختارًا كهنوتًا ثمينًا لأننا جميعًا ممسوحون بنعمة روحية لنشارك فى ملكوت الله وفى الكهنوت .

لماذا غسل الرب ارجل تلاميذه ؟

لقد خرجتم من جرن المعمودية ، فتذكروا تعليم الإنجيل ، لأن ربنا يسوع المسيح غسل أرجل تلاميذه ، وعندما جاء إلى سمعان بطرس ، قال بطرس : " لن تغسل رجلى أبدًا " (يو١٣: ٨) . إنه لم يدرك السر ، ولذلك رفض الخدمة لأنه ظن أن ذلك يجرح اتضاع الخادم ، ليته كان قد تأنى وسمح للرب بأن يقوم بخدمته فأجابه الرب : " إن لم أغسل قدميك فليس لك معى نصيب " ، وإذ يسمع بطرس يجيب : " يارب ليس رجلى فقط بل يدى ورأسى أيضًا " ، أجاب الرب : " إن من اغتسل لايحتاج إلاّ إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله " (يو١٣: ٩،١٠) .

لقد كان بطرس نقيًا ، ولكنه كان ينبغـى أن يغسـل رجليـه إذ كـانت فيـه خطية موروثة عن الإنسان الأول عندما قهرته الحية وقادته إلـى الخطيـة ، إذًا فقد غُسلت رجلاه حتى يطهر من الخطايا الوراثية ، فـإن خطايانـا تُغفر فى المعمودية .

لاحظ فى نفس الوقت أن السر يكمن فى عمل الاتضاع ذاته ، لأن المسيح يقول : " إذا كنـت وأنـا ربكـم ومعلمكـم قـد غسلت أرجلكم ، فينبغي بالحرى أن تغسلوا بعضكـم أرجـل بعـض " . لأنـه إذا كان رب الخلاص نفسه قد افتدانا بطاعته . فكم ينبغى علينا نحن خدامـه أن نقدم خدمة اتضاعنا وطاعتنا ... !



الفصل السابع

الملابس البيضاء :

بعد ذلك أعطيت لكم ملابس بيضاء كعلامة على أنكم كنتم تخلعون لُباس الخطايا وتلبسون لُباس الطهارة والبراءة الذى قال عنه النبى :" تنضح على بزوفاك فاطهر ، تغسلنى فأبيض أكثر من الثلج " (مز ٥١:٩) . لأن الذى يعتمد يصير طاهرًا وذلك بحسب الناموس والإنجيل كليهما : حسب الناموس لأن موسى رش دم الحمل بباقة من الزوفا (خر ١٢:٢٢) ، وحسب الإنجيل لأن ثياب المسيح كانت بيضاء كالثلج عندما أظهر مجد قيامته فى الإنجيل (١) . إذن فذاك الذى يغفر أثمه يبيض أكثر من الثلج ، لذلك قال الله بواسطة إشعياء : " إن كانت خطاياكم كالقرمز أجعلها بيضاء كالثلج " (إش ١:١٨) .

فالكنيسة لأنها لبست هذه الثياب فى جرن التجديد تقول فى نشيد الأنشاد: " أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم " (نش ١:٥) . سوداء بسبب ضعف وهزال بشريتها ، وجميلة فى سر الإيمان ، وبنات أورشليم إذ ينظرن هذه الثياب يقلن فى إعجاب : " من هذه الطالعة الصائرة بيضاء " (نش٣:٦) . لقد كانت سوداء فكيف أصبحت الآن فجأة بيضاء .

وحتى الملائكة شكوا عندما قام المسيح ، لقد كانت قوات السماء فى حيرة عندما رأت ذلك الجسد صاعدًا إلى السماء ، وحينئذ قالوا : " من هو هذا ملك المجد ؟ " ثم قال البعض : " ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية فيدخل ملك المجد " (مز ٢٤:٨،٩) . وفى

---

(١) حالة التجلى هى حالة مجد القيامة .

إشعياء أيضًا نجد أن قوات السماء شكت وقالت : " من هذا الآتى من أدوم بثياب حمر من بصرة ، هذا البهى بملابسه البيضاء ؟ " (إش٦٣:١) .

ولكن المسيح إذ ينظر إلى كنيسته التى لأجلها لبس ثيابًا رثة ـ كما تجدون فى سفر زكريا النبى ـ (إذ ينظر إليها) وقد ارتدت الآن ثوبًا أبيض، أى أنه إذ يرى نفسًا نقية مغتسلة فى جرن التجديد يقول : " ها أنت جميلة يا حبيبتى ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان " (نش٤:١) ... مثل التى على مثالها نزل الروح القدس من السماء ، فالعينان جميلتان مثل عين الحمامة لأن الروح القدس نزل من السماء مثل حمامة .

بين الكنيسة والمسيح :

ويستمر قائلاً : " أسنانك كقطيع الغنم المجزوز، الطالعة من الغسل اللواتى كل واحدة منهن تحمل توائم وليس فيهن عقيم ، شفتاك كخيط من القرمز " (نش٤:٢،٣) . وهذا مديح لايستهان به ، أولاً بالمقارنة اللطيفة بتلك الأغنام المجزوزة ، لأننا نعرف أن الماعز تأكل فى الأماكن المرتفعة بدون مخاطرة ، كما تضمن وجود طعامها فى الأماكن الوعرة ، فعندما تكون مجزوزة فإنها تكون حرة من الزوائد . فالكنيسة تُشبه قطيعًا مثل هذا بما تحتويه من الفضائل العديدة لتلك النفوس التى تلقى عن كاهلها فى المعمودية ، الخطايا التى هى كزوائد (محيطة بالنفس) وتقدم للمسيح الإيمان السرى ونعمة الحياة الصالحة التى تنطق بصليب الرب يسوع .

الكنيسة جميلة فيهم ، لذلك فإن الله الكلمة يقول لها : " كلك جميلة ياحبيبتى ، ليس فيك عيب " (نش٤:٧) لأن الأثم قد غُسل . " هلمى معى من لبنان ياعروس هلمى معى من لبنان من رأس الإيمان(١) تدخلين

(١) هكذا فى السبعينية ، فى العبرية " أمانة " .

وتعبرين" (نش٤:٧،٨س) ، لأنها برفضها للعالم مرت خلال الأشياء الزمنية وعبرت إلى المسيح ، وأيضًا يقول لها الله الكلمة : " ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات ، قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بعناقيد العنب " (نش٧:٦،٧س) .

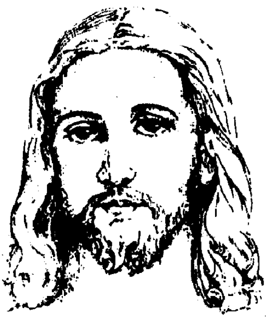
وتجيبه الكنيسة : " من يعطيني إياك ياأخي الراضع ثدى أمي ؟ إن وجدتك خارجًا أقبلك وهم لن يخزونني ، وأخذك وأدخل بك بيت أمي وخباء من حبلت بي وأنت ستعلمني " (نش٨:١،٢س) . إنكم ترون كم تشتاق الكنيسة، فرحة بهبات النعمة إلى الوصول إلى أعمق الأسرار وتكريس كل عواطفها للمسيح ، إنها مازالت تبحث ومازالت تستثير حبه وتطلب من بنات أورشليم أن يحركن حبه لها ، وتتمنى أنه بواسطة جمالهن ـ أى جمال النفوس الأمينة تحرك عريسها ليكثر حبه لها .

لذلك فإن الرب يسوع نفسه إذ يناديه مثل هذا الحب الملتهب والجمال البهى والنعمة ـ إذ ليس هناك الآن ما يدنس المُعمدين ـ يقول للكنيسة : "اجعليني كختم على قلبك كختم على ساعدك " (نش٨:٦س) . أى (يريد أن يقول لها) : أنت جميلة ياحبيبتي ، كلك جميلة ولاينقصك شئ . اجعليني كختم على قلبك حتى يشع إيمانك في ملء السر ، اجعلي أعمالك أيضًا تضئ وتبين صورة الله الذى خُلقتِ على مثاله ، ولاتسمحي لأى اضطهاد أن يقلل من حبك الذى لاتستطيع مياه كثيرة أن تطفئه ولاسيول أن تغمره .

ختم الروح القدس :

ثم تذكروا أنكم قبلتم ختم الروح ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة والتقوى ، وروح الخوف المقدس (إش١١:٢) ،

وحافظتم على ما قبلتم . الله الآب ختمكم ، المسيح الرب قواكم ، واعطى عربون الروح فى قلوبكم (٢كو٥:٥) كما تلقنتم من تعليم الرسول



الفصل الثامن

الإفخارستيا والعهد القديم :

إن الشعب المتطهر الغنى بهذه المحاسن يسرع إلى مذبح المسيح قائلاً : " إنى أذهب إلى مذبح الله ، إلى الله الذى يُفرح شبابى " (مز٤٣:٤) ، أنهم إذ قد تركوا جانبًا حمأة الخطأ القديم وتجدد شبابهم كالنسر ، يسرعون للاقتراب من تلك الوليمة السمائية . فإذ يأتون ويرون المذبح المقدس مهيئًا يصرخون قائلين : " رتبت قدامى مائدة : إن داود يقدم الشعب كأنه هو المتكلم عندما يقول : " الرب يرعانى فلا يعوزنى شئ ، فى مراعٍ خضر يربضنى ، إلى مياه الراحة يوردنى " ، ثم بعد ذلك : " إذا سرت فى وادى ظل الموت لاأخاف شرًا لأنك أنت معى ، عصاك وعكازك هما يعزياننى ، ترتب قدامى مائدة تجاه مضايقى ، مسحت بالدهن رأسى وكأسك المُروية ما أعظمها " (مز٢٢:١ـ٥س) .

فلنلتفت الآن لأنه ربما عندما يرى أحد ما هو منظور (لأن الأشياء التى لاتُرى لايمكن أن تُرى أو تُدرك بالعيون البشرية) يقول : " أمطر الله المن والسلوى على اليهود " (خر١٦:١٣) . ولكن الله لأجل الكنيسة التى يحبها يعد أمورًا قيل عنها : " مالم تره عين ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه " (١كو٢:٩) . لذلك لئلا يقول أحد هذا ، فسنبذل جهدنا لنثبت أن أقداس الكنيسة أقدم من تلك التى للمجمع (اليهودى) وأعظم بكثير من المن .

إن درس سفر التكوين الذى قرأناه الآن يظهر أن الأقداس أقدم ، لأن المجمع استمد كيانه من ناموس موسى ، ولكن ابراهيم كان أقدم منه ، الذى بعد أن هزم العدو واستعاد ابن أخيه ، وبينما كان مسرورًا بنصرته تقابل

مع ملكى صادق الذى أخرج تلك الأشياء (خبزًا وخمرًا) التى قبلها ابراهيم باحترام . لم يكن ابراهيم هو الذى قدمها بل ملكى صادق الذى عُرف بأنه : بلا أب بلا أم ، بلا بداية أيام ولا نهاية ، ولكنه مُشبه بابن الله الذى يقول عنه بولس للعبرانيين : " الذى يبقى كاهنًا إلى الأبد " . الذى يُدعى فى النسخة اللاتينية ملك البر وملك السلام .

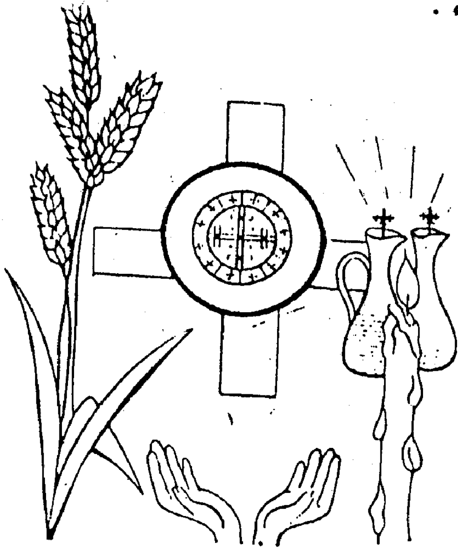
هل عرفت من هو ؟ هل يمكن أن يكون إنسانًا ملكًا للبر فى حين أنه هو نفسه يصعب أن يكون بارًا ؟ هل يمكنه أن يكون ملكًا للسلام فى حين أنه يصعب أن يكون محبًا للسلام ؟ إنه هو الذى بلا أم حسب لاهوته لأنه وُلد من الله الآب ، وهو من نفس جوهره ، وبلا أب من جهة تجسده ، لأنه وُلد من عذراء ، ليس له بداية ولانهاية لأنه هو بداية ونهاية كل شئ الأول والآخر . إذًا فالسر الذى قبلتموه ليس هو هبة من إنسان بل من الله، مُعطى بواسطة ذاك الذى بارك ابراهيم أب الإيمان ، الذى نعجب لنعمته وأفعاله .

لقد أثبتنا أن أسرار الكنيسة هى الأقدم ، والآن أذكروا أنها هى الأسمى. إنه لعجيب حقًا أن الله أمطر منًا على الآباء ، وأطعمهم بخبز يومى من السماء ، لذلك فقد قيل : " أكل الإنسان خبز الملائكة " (مز٧٨:٢٥) . ولكن كل أولئك الذين أكلوا ذلك الطعام ماتوا فى القفر ، لكن هذا الطعام الذى تأخذونه ، هذا الخبز الذى نزل من السماء يهب طبيعة الحياة الأبدية ، وكل من يأكل من هذا الخبز لن يموت ، إنه جسد المسيح .

فهل يُعتبر خبز الملائكة أفخر أم جسد المسيح الذى هو بالتحقيق جسد الحياة ؟ ذلك المن نزل من السماء ، وهذا (الجسد) فوق السموات ، ذاك كان من السماء ، وهذا من رب السموات ، ذاك كان قابلاً للفساد إذا حُفظ

يومًا ثانيًا وهذا بعيد عن كل فساد . لأن أى من ذاقه بقداسة فلن يشعر بالفساد. لأجلهم خرج الماء من الصخر ، ولأجلكم خرج الدم من المسيح ، الماء رواهم إلى حين ، والدم يُشبعكم إلى الأبد ، اليهود كانوا يشربون وكانوا يعطشون أيضًا وأنتم بعد الشرب تصيرون فوق مستوى العطش ، ذاك كان ظلاً وهذا إنما هو حقيقة .

فإذا كان ذاك الذى تتعجبون منه مجرد ظل ، فكم ينبغى لذاك الذى تتعجبون من ظله أن يكون عظيمًا ؟ أنظر الآن ما حدث كظل مع الآباء : "جميعهم شربوا من الصخرة التى تابعتهم والصخرة كانت المسيح ، ولكن بأكثرهم لم يُسر الله لأنهم طُرحوا فى القفر وهذه الأمور أصابتهم مثالاً لنا" (١كو١٠:٤) . فالآن يمكنكم أن تعرفوا أيهما أعظم ، لأن النور أعظم من الظل ، والحقيقة أعظم من الرمز ، وجسد ذاك الذى يعطيه أعظم من المن الذى من السماء .



الفصل التاسع

النعمة أقوى من الطبيعة :

ربما تقول : " إننى أرى شيئًا آخر كيف تؤكد أننى آخذ جسد المسيح" ؟ وهذه هى النقطة الباقية لنا لكى نثبتها ، ولكن أى برهان يمكننا أن نستخدمه ؟ فلنثبت أنه ليس من صُنع الطبيعة ، بل من تقديس البركة ، وقوة البركة أعظم من قوة الطبيعة ،لأنه بالبركة تتغير الطبيعة نفسها .

كان موسى ممسكًا بعصا ، ألقاها على الأرض فصارت ثعبانًا (خر٤:٣،٤) ، ثم أمسك بذيل الثعبان فرجع إلى طبيعة العصا . فأنت ترى أنه بفضل وظيفة النبى كان هناك تغيير لطبيعة الثعبان ثم لطبيعة العصا . ينابيع مصر كانت مياهها نقية وفجأة بدأ الدم يتدفق من ينابيعها ، لم يستطع أحد أن يشرب من النهر ، ثم بصلاة النبى توقف الدم ورجعت المياه إلى طبيعتها (خر٧:٢٠) .

شعب العبرانيين كان مغلقًا عليه من كل جانب ، المصريون يحيطون بهم من ناحية والبحر من الناحية الأخرى ، فرفع موسى عصاه فانشق الماء وتصلب كالجدران ، وظهر طريق للسير بين الأمواج (خر١٤:٢١) . والأردن ارتد إلى خلف ورجع إلى منبع جريانه مضادًا للطبيعة (يش٣:١٦) ... أليس واضحًا أن طبيعة أمواج البحر وكذلك أمواج النهر قد تغيرت ؟ إن شعب الآباء عطشوا ، وموسى ضرب الصخرة فتفجر منها الماء (خر١٧:٧) . ألم تؤد النعمة إلى نتيجة ضد الطبيعة حتى أن الصخرة أخرجت ماء لم تكن تحتويه بطبيعتها ؟ لقد كانت مارة بحيرة مرة جدًا حتى أن الشعب العطشان لم يقدر أن يشرب منها ، فألقى موسى فيها بشجرة ففقد الماء مرارته ، إنه التلطيف المفاجئ للنعمة (خر١٥:٢٥) .

فى زمن إليشع النبى فقد واحد من أبناء الأنبياء رأس فأسه التى غرقت، فذاك الذى فقد الحديد سأل إليشع ، فألقى إليشع بقطعة خشب(فى الماء) فطفا الحديد . وهذا أيضًا نعرفه بوضـوح أنـه حدث مضـاد للطبيعة لأن الحديد أثقل بطبيعته من الماء (٢مل٦:٥-٧) .

إذًا فنحن نلاحظ أن النعمة لها قوة أعظـم من الطبيعـة ، مـع أن كلامنـا حتى الآن كان فقط عن نعمة بركة النبى ، فإن كانت بركة الإنسان لها مثـل هذه القوة حتى تغير الطبيعة فماذا نقول عن ذلك التقديس الإلهى الذى تعمل فيه نفس كلمات الرب المخلص ؟ لأن ذلك السر الذى تتقبلونه يصـير هكذا بكلمة المسيح ، وإن كانت لكلمة إيليا تلك القوة التى تنزل نارًا من السماء ، أفلا تكون لكلمة المسيح القوة التى تغير طبيعـة المـواد ؟ إنكـم تقـرأون عـن صُنع العالم كله : " هو تكلم فصُنعت ، هو أمر فخُلقت " (مز١٤٨:٥س) . أفـلا تكـون كلمـة المسيح التـى استطاعت أن تصنـع مـن العدم مـالم يكـن موجودًا، قادرة على تغيير الأشياء الموجودة فعلاً إلى مالم تكن عليـه ؟ لأن منح طبيعة جديدة للأشياء أمر ليس بأقل من تغييرها .

ولكـن لمـاذا نستخدم المجـادلات فلنستخدم الأمثلـة التـى يعطيهـا اللــه ، وبمثل التجسد نثبت حقيقة السر . هل ولادة الرب يسـوع مـن مريـم حدثـت بالطريق الطبيعى ؟ فإذا نظرنا إلى الطريقة الطبيعيـة نجـد أن المـرأة تحبـل عادة بعد التصاقها برجل . وهذا الجسد الذى يُعطى لنا (أى الإفخارستيا) هو الذى وُلد من العذراء .

لماذا تبحثون عن النظام الطبيعى فى جسد المسيح وأنتم ترون أن الـرب يسوع نفسه وُلد من عذراء ليس حسب الطبيعة ؟ إنه جسد المسيح بالحقيقـة الذى صُلب ودفن ، وهذا هو بالحقيقة سر جسده .

والرب يسوع نفسه يقرر : " هذا هو جسدى " (مت٢٦:٢٦) . قبل بركة الكلمات السمائية تكلم عن طبيعة أخرى ، وبعد التقديس نتكلم عن الجسد ، وهو نفسه يتكلم عن دمه الذى كان له اسم آخر قبل التقديس ، أما بعد التقديس فيدعى دم ، وأنتم تقولون (آمين) أى هو بالحقيقة ، فليعترف القلب فى الداخل بما ينطق به الفم ولتشعر النفس بما يقوله الصوت .

إذًا فالمسيح يُطعم كنيسته بهذه الأسرار التى بها تتشدد طبيعة النفس ، وإذ يرى تقدمها المستمر فى النعمة يقول لها بالحق : " ما أجمل ثدياك ياأختى العروس ، ما أجملهما بالخمر ، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب ، شفتاك ياعروستى تقطران شهدًا ، تحت لسانك عسل ولبن ، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان ، أختى العروس جنة مغلقة ، وينبوع مختوم " (نش٤:١٠-١٢) . قاصدًا بذلك أن السر يظل عندكم مختومًا حتى لايُهتك بأفعال حياة الشر وتدنيس العفة حتى لايُعرف لديكم أنتم الذين لايناسبكم ، وحتى لاينتشر بكثرة ثرثرة الكلام بين غير المؤمنين ، إن يقظة إيمانكم يجب أن تكون حسنة حتى تستمر استقامة الحياة والهدوء بدون عيب .

لذلك فالكنيسة بضبطها لعمق الأسرار السمائية تدرأ عواصف الرياح الثائرة وتقتنى لنفسها حلاوة نعمة الينبوع ، وإذ تعرف أن جنتها لايمكن أن تكدر المسيح ، تدعو العريس قائلة : " إستيقظى ياريح الشمال وتعالى ياريح الجنوب ، هبى على جنتى فتقطر أطيابها ، ليأت أخى إلى جنته ويأكل ثمرة أشجاره " (نش٤:١٦) . لأن فيها أشجارًا جيدة عُمقت جذورها فى ماء الينبوع المقدس ، وبالنمو المتجدد طرحت ثمارًا جيدة لكى لاتُقطع الآن بفأس النبى بل تتكاثر بملء ثمر الإنجيل .

وأخيرًا يجيب الرب مبتهجًا بخصوبة الأشجار قائلاً : " دخلت جنتى يا أختى يا عروستى ، قطفت مرى مع طيبى ، أكلت شهدى مع (لحمى) مع عسلى ، شربت خمرى مع لبنى " (نش٥:١) . افهموا يا أيها المؤمنون لماذا نتكلم عن اللحم والخمر . ليس ثمة شك فى أنه هو نفسه يأكل ويشرب فهنا كما قرأتم أنه محبوس فى أشخاصنا (مت٢٥:٣٦) .

وعلى ذلك فالكنيسة وهى حاملة نعمة عظيمة بهذا المقدار تحض أولادها وأصدقاءها أن يقبلوا إلى الأسرار قائلة : " كلوا يا أصحابى واشربوا واسكروا يا أخوتى " (نش٥:١) . إن ما تأكله وما تشربه قد أوضحه الروح القدس فى موضع آخر بواسطة النبى القائل : " ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب ، طوبى للرجل الذى يضع رجاءه فيه " (مز٣٤:٩) . وفى هذا السر يوجد المسيح لأنه جسد المسيح ، لذلك فهو ليس طعامًا جسديًا بل روحيًا ، لذلك يقول الرسول عن مثال هذا الطعام : " آباؤنا أكلوا طعامًا وشربوا شرابًا روحيًا " (١كو١٠:٣) ، لأن جسد الله جسد روحى ، جسد المسيح هو جسد الروح الإلهى لأن الروح هو المسيح كما نقرأ : " الروح الذى أمامنا هو مسيح الرب " (مراثى٤:٢٠) . وفى رسالة بطرس نقرأ " المسيح مات عنا " ، وأخيرًا فهذا الطعام يشدد قلوبنا ، وهذا الشراب "يفرح قلب الإنسان " (مز١٠٤:١٥) كما يسجل النبى .

وعلى ذلك فإذ قد حصلنا على شئ فلنعرف أننا وُلدنا ثانية ، ولكن لا يجب أن نقول : كيف نولد ثانية ؟ ألعلنا دخلنا بطن أمنا ثانية وولدنا ، إننى لا أجد هنا نظام الطبيعة لأنه حيث يكون امتياز النعمة لا يوجد نظام الطبيعة ، كما أن الحبل لا يحدث وفقًا لنظام الطبيعة فى جميع الحالات لأننا نعترف أن المسيح الرب حُبل به من عذراء وخرق نظام الطبيعة لأن مريم

لم تحبل من رجل بل من الروح القدس كما يقول متى : " وُجدت حبلى من الروح القدس " (مت١٨:١) . فإذا كان الروح القدس بحلوله على العذراء سبب الحبل والولادة فبالتأكيد لاينبغى أن نشك فى أنه بحلوله فى الجرن أو على أولئك الذين ينالون المعمودية يصنع حقيقة الولادة الجديدة .



ترجمة حياة القديس أمبروسيوس (١)
أسقف ميلانو

وُلد عام ٣٤٠ ميلادية، ورُسم أسقفًا فى ٧ ديسمبر عام ٣٧٤م، وانتقل إلى صفوف السمائيين فى منتصف ليلة عيد القيامة ـ ٤ أبريل من عام ٣٩٧م.

طفولته :

لقد كان القديس أمبروسيوس أصغر أبناء أمبروسيوس ـ حاكم بلاد الغال ـ فى عهد قسطنطين الصغير . فكان له السلطان على نصف أوروبا تقريبًا ويشمل أسبانيا القديمة وفرنسا وبلجيكا وبروسيا والجزر البريطانية . وكان مقره الرئيسى تريف عاصمة الامبراطورية الشمالية التى تمتاز بمسارحها وصالات اجتماعاتها وحماماتها وجميع مستلزمات أى مدينة رومانية عظيمة . ويعتقد عمومًا أن أسرة أمبروسيوس عاشت سنوات طويلة فى تريف ـ أو بالقرب منها ـ تتمتع بشرف مزدوج : المركز المدنى العظيم وشرف المسيحية التى ترجع بهم إلى أجيال البطولة فى الاضطهادات . ومن مفاخر هذه الأسرة ، عذراء شهيدة تدعى "سوديريس " رفضت أن تقدم البخور للآلهة ، فحُكم عليها بالتعذيب حتى الموت فى عهد دقلديانوس.

وكان لهذه الأسرة أبناء ثلاثة : مارسيللينا (وهى الكبرى) وساتيروس ، ثم أمبروسيوس أصغرهم ، الذى كان أصغر من شقيقته بعشر سنوات . وكانت العلاقات بين هؤلاء الأشقاء الثلاثة من أجمل ما يكون .

---

(١) اشترك فى إعداد ترجمة حياة القديس أمبروسيوس ، الأستاذ كامل عبدالمجيد عوض، وراجعها ونقحها بيت التكريس بحلوان .

وأما الوالد والوالدة فمعرفتنا عنهم قليلة . ويبدو أن مارسيللينا كانت بمثابة الوالدة والشقيقة لأخويها ، وباعتبار كونها البكر فقد نذرت للرب وهى فى طفولتها ، عند عمادها .

وقد وُضع الملح ، وهو رمز الحكمة وعدم الفساد ، على شفاه أمبروسيوس فى طفولته ورُسم الصليب على حاجبه ، ولكن معموديته تأخرت ، ويروى سكرتير أمبروسيوس الخاص ، عنه أنه لما كان طفلاً مضجعًا فى مهده فى بهو قصر والده حطت أسراب من النحل على شفتيه (كما حدث لأفلاطون) وأخذت تدخل فمه وتخرج منه . فأضطربت المربية وحاولت طرد النحل ، لكن والدى الطفل وأخته اقتربوا من الطفل ولم يسمحوا بإزعاجه أو بإزعاج النحل . وبعد برهة طار النحل وارتفع عاليًا جدًا حتى غاب عن الأنظار . وعندئذ قال الوالد : " هذا الطفل سيكون عظيمًا ! " .

تكريس مارسيللينا :

وعندما كان أمبروسيوس غلامًا ومارسيللينا فتاة فى نحو التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها وهى فى منزل والدها الريفى الهادئ ، سمعت صوت الشهيدة " سوديريس " التى كانت قد أُستشهدت منذ خمسين عامًا تدعوها أن تتبعها وتنبذ العالم بما فيه وتكرس حياتها لخدمة الله ، فأطاعت مارسيللينا وتوجهت إلى روما إلى منزل والدها بالقرب من الكابيتول .

وفى عيد الميلاد التالى (سنة ٣٥٣م) تسلمت من البابا المسن ليبريوس قناع البتولية مع جمع من العذارى فى كنيسة الفاتيكان . وحضر الاحتفال جمهور غفير من الناس وخطب فيهم ذلك الشيخ بكلمات الثناء والتشجيع قائلاً : " إن المسيح سيتقبل نذركم " . ووجه إلى مارسيللينا التى كان يعرفها

جيدًا ولاشك ، كلمات خاصة قائلاً: " أحبيه كثيرًا يابنيتى فإنه صالح . فالأسفار الإلهية تقول أنه ليس صالح إلاّ الله فلتكن لنفسك أجنحة وليتجدد مثل النسر شبابك " .

وفى نحو ذلك الوقت توفى الوالد وعادت أرملته إلى قصر الأسرة فى روما بالقرب من الكابيتول .

وفى تلك الأيام ، لم تكن العذارى الناذرات ، تتركن منازلهن . فكان منزل الأم ديرًا لمارسيللينا وهناك عاش الأربعة مع بعضهن ، ومعهن صديقة لمارسيللينا نذرت نفسها هى أيضًا لخدمة الرب . وعاش الكل حياة عائلية جميلة فى بساطة ووداعة ، يزيدها تكريس الابنة الوحيدة جلالاً وهيبة .

وفى إحدى المناسبات لما رأى الصبى أمبروسيوس سيدات المنزل يقبلن يد الأسقف حسب العادة ، مد إليهن يده قائلاً : " قبلوا يدى لأنى سأكون أسقفًا يومًا ما " .

ومما لاشك فيه أن وجود الوالدة الأرملة كان عاملا فى تقديس حياة الأسرة كلها . إلاّ أنه يبدو أن التأثير والإلهام الأكبر كان لمارسيللينا .

أما أمبروسيوس فكان يدعو أخته " القديسة المكرمة " ، ولاعجب ، فقد راعته فى مهده وعاشت حتى ركعت بجوار قبره ! ... لقد كانت عظيمة لدرجة أنها فهمت أمبروسيوس ، لقد كان لها من القوة ما يجعلها تستطيع أن تسنده ، ولها من الحنو ما يكفى ليعزيه .

أمبروسيوس الشاب :

أما الشقيقان الآخران فقد كانا متقاربين فى العمر ، درسا معًا فى المدرسة وعملا معًا فى المنزل ، وكان يندر أن تجدهما مفترقين ، فإذا

وُجدا أحدهما منفردًا كان هذا معناه أن الآخر لابد أن يكون مريضًا ، وكان حديثهما لاينتهى حينما كانا يدرسان اللغة اليونانية .

كما درسا القانون الرومانى والبيان والبلاغة تلك العلوم التى كانت مفتاح الحياة المدنية والسياسية ، إذ لم يخلو البيان من الأطناب والألفاظ المنمقة فى ذلك العصر ، عصر الانحلال . وكان مجتمع روما مختلطًا . وكان فى ذلك الزمان لايزال هناك مايقرب من مائتين وخمسين معبدًا وثنيًا بالمدينة بكهنتها وطقوس ذبائحها . وكان أحد البيوت التى يتردد عليها الأخوان ، بيت سيماخوس عمدة المدينة الوثنى وابنه صديق العمر بالنسبة لأمبروسيوس الذى كان من أكبر المدافعين عن الوثنية ، وكم ترافع ضد أمبروسيوس فى مجلس الشيوخ .

وهكذا شهد الشقيقان أواخر عصر الوثنية بفلسفتها الرمزية وبصوفيتها الشرقية الغربية الممثلة فى معابد إيزيس ومذابح " مثرا " .

وكانا يزوران بيتًا عظيمًا آخر ، هو بيت " بترونيوس برورباس " ، الذى كان قد تنصر حديثًا ، فانقلبت فى بيته رائحة البخور الوثنية إلى رائحة التقوى المسيحية . وكان ذلك البيت فى علاقة ود وتآلف مع بيت "اينسئ" العظيم . وكان من نساء الأسرة مارسيلا وباولا ويوستكيوم ويوليانا وفابيولا .

وكان أيضًا إيرينموس الشاب الذى من دلماطية الممتلئ غيرة كثيرًا مايوجد هناك . وكانت المسيحية فى ذلك العصر فى أوج شبابها وعز انتصارها تجابه الوثنية الجوفاء المتداعية الآخذة فى الأفول . (وقد أثر على شباب أمبروسيوس يوليانس الجاحد فى محاولته الرجعية لبعث الوثنية).

عائلة مثالية :

لم تكن صداقات الأشقاء والشقيقات منحصرة فى النطاق العائلى فقط لأنهم كانوا ذوى اتصالات واسعة بالكثيرين ممن يكرمونهم ويحبونهم . فهناك كان بريسكوس صديق أمبروسيوس فى شبابه وكهولته ، كما كان هناك ـ على الأخص ـ سمبليكان وهو أكبر فى العمر من الأخوة الثلاثة ، وصديق العمر لأمبروسيوس وخليفته فى ميلانو ، وكان هناك أيضًا فيكتورينوس الأستاذ الشهير مترجم كتابات أفلاطون ومدرس شباب أشراف روما ، والذى انتشله سمبليكان من الوثنية .

وإنه لمن الحوادث العجيبة التى رآها أمبروسيوس فى شبابه ، كيف تمكن صديقه سمبليكان من جذب ذلك الأستاذ الوثنى العظيم إلى المسيحية ، وكيف وضع الكتب المسيحية المقدسة بين يديه ، وكيف أن فيكتورينوس قرأ وأعجب وآمن وتقدم نحو الإيمان المسيحى ودخل الكنيسة ، وأخيرًا جاهر بإيمانه وأخبر أمبروسيوس أنه مسيحى ! وفى الاحتفال التالى العظيم ما كان أشد ابتهاجهم عندما رأوا ذلك الأستاذ الكهل متسربلاً بثياب حديثى الإيمان البيضاء . ومثل طفل طاهر يصعد على درج منبر الكنيسة ويعلن على الملأ نبذه الوثنية . حينئذ سرى همس عال من أفواه جميع الحاضرين: " فيكتورينوس ؟! فيكتورينوس ؟! " ، باندهاش عجيب لأن الجميع كانوا يعرفونه !

وبعد ذلك مباشرة أمر يوليانس الجاحد بأن يمنع أى مسيحى من تدريس الآداب ، واستقال فيكتورينوس من المركز الذى شغله لمدة أربعين سنة حتى لايخون سيده مؤمنًا بأن المسيح قادر أن يسكب الفصاحة حتى فى أفواه الأطفال .

وفى مدرج الألعاب الرياضية كان أمبروسيوس فـى صباه يمقت قسوة الرياضى حينما ينتصر ، إذ كـان المنتصر يطـرح غريمـه أرضًا ويدوس على وجهه ويهينه بدون شفقة . وفى رجولته المبكرة انتقل من ذلك الوسـط الفاسد إذ أنه عُيـن حاكمًا لمقاطعـة إميليا وليجوريا ، المعروفـة الآن باسم بيدمونت ولومباردى .

أمبروسيوس حاكمًا فأسقفًا بإجماع الشعب :

وكان مقر عمله فـى ميلانـو ، وعندمـا كـان صديقه القديـم "بـترونيوس بروباس" يودعه إلى مقر عمله أوصاه قائلاً : " لاتعمل كقاض بل كأسـقف"، قاصدًا طبعًا أنه يحكم بمقتضى البر والرحمـة المسيحية ، وهـو بهـذا كـان ينطق بنبوة وهو لايدرى !! ..

وكـانت ميلانـو فـى ذلـك الحيـن ، المقـر الإيطـالى للأبـاطرة والعاصمـة للأمبراطوريـة الغربيـة . ووجـد أمبروسـيوس أن المدينـة كـانت مضطربـة بمجادلات آريوسية إذ كانت تحـت حكـم الأسـقف الآريوسـى أوكسـنتيوس . ولم يمض أكثر من سنة فى مركزه الجديد حتى توفى أوكسنتيوس فتحولـت هذه المجادلات إلـى أزمـة حينمـا تطلـب الموقـف اختيـار الأسـقف الجديـد . فتجمعت الجماهير ، وخاصة فى الكنائس ، وتجمع الإكليروس فى خـورس المرتلين فى الكاتدرائية لإجراء عملية الانتخاب . وازدحمـت الجمـاهير فـى صحن الكنيسة وكان يفصلهم عن خورس المرتليـن حـاجز ، علـى الطريقـة الشرقية .

وعلت المجادلات العنيفة وبرز خطر الشغب فى الكنيسة ، وهنا حضـر أمبروسيوس ليقمع الشغب بصفته حاكم المدينة . وعند دخوله سُمع صـوت جميل واضح ، كما لو كان صوت طفل ، وسط الصخب قائلاً :

" أمبروسيوس هو الأسقف ، أمبروسيوس هو الأسقف " فقد كان مركز أمبروسيوس وإيمانه وشخصيته العادلة الرحيمة معروفة للجميع ، وبحماس منقطع النظير اندفع الشعب كله مرددًا الدعوة لأمبروسيوس . ورغم نفوره ومقاومته وهروبه ، اضطر أمبروسيوس أن يرضخ أخيرًا ..

ومما يلذ معرفته كعلامة على الرابطة - التى لم تكن قد انقطعت بعد - بين الشرق والغرب ، أن أمبروسيوس استلم رسالة تهنئة على انتخابه من القديس باسيليوس الكبير أسقف قيسارية كبدوكية .

ولم يكن أمبروسيوس قد تعمد حتى ذلك الوقت ، فتقبل المعمودية حالاً على يد صديقه القديم الكاهن سمبليكان الذى قال عنه " قد تكون لى صداقة مع كثيرين ولكن صداقتى مع أمبروسيوس هى كصداقة الأب مع ابنه " ..

وبعد تغطيسه ثلاث مرات حسب طقس كنيسة ميلانو قُبل فى الكنيسة . وبعد حوالى أسبوع كُرس أسقفًا (سنة٣٧٥) . غير أنه لم يعتبر هذه ترقية له ، بل بالحرى اعتبرها من أثقل الأحمال الحقيقية ، إذ أنه بعد أن تسلمها لم يذق طعم الراحة أبدًا طوال الأثنين والأربعين عامًا التى بقيت من حياته.

ولحقت به أخته مارسيللينا وأخوه ساتيروس ، فقد تركت أخته روما لتبقى معه وتعيش فى منزله . وحتى عندما كانت تعتزل للهدوء والصلاة فى منزلها الريفى بالقرب من ميلانو ، كانت دائمًا معه تشاطره مساعدة الفقراء وصلواته ودراسته للكتاب المقدس .

أما ساتيروس أخوه فكان يتولى إدارة الشئون الداخلية للأسقفية وإيراداتها وكان الارتباط المبارك بين قلبيهما نادر المثال ، إذ كانا متحدين فى الاخلاص لخدمة الرب والناس ، بطرقهما المتنوعة .

لم يدم هذا الحال طويلاً . ففى عام ٣٧٨ ، أى بعد ثلاث سنوات تقريبًا من رسامة أمبروسيوس ، سافر ساتيروس إلى إفريقيا للإشراف على بعض شئون ممتلكات الإبروشية هناك . وفى أثناء رحلته غرقت السفينة ونجا هو من الموت غير أنــه ظـل يعـانى مـن المـرض والضـعـف ، ولكـن اللـه ظـل محافظًا على حياته حتى مَنّ عليه بالبركة العظمى التى كان يحن إليها أثنــاء غرق السفينة . وبعد أن اعتمد بقليل وصل إلــى شـاطئ المدينـة السـماوية . فقد توفى حالما وصل إلى أخيه وأختـه فـى ميلانـو ولمـا وضـع جسـده فـى الكنيسة ركع أمبروسيوس بجانبه ثم قام ليلقى عظة الرثــاء لأخيـه . وكـانت مليئة بصور الكفاح وبمشاعر الحزن والرجاء وكشفت عن أعماق قلبه :

" لمـاذا أبكيك يـاأخى الحبيـب ؟ .. لقـد تغير المكـان فقـط ، ومــن الآن ستكون أرواحنا معًا " .

ثم حلت ساعة الـوداع الأخـير ، وطبقًـا للطقـوس القديمـة كـانوا يدعـون الميت ثلاث مرات ، وتليت آخر الكلمـات . ونظـر إليـه أمبروسـيوس مـرة أخرى فى سكون بين دموع المشيعين ، ثم رفع عينيـه إلـى السـماء وقـال : "أيها الرب القادر على كل شـئ تقبـل قربـان هـذه النفـس المسـكينة ، واقبـل ذبيحتى هذه بصفتى أخًـا وكاهنًـا ، نعـم هـذه الحيـاة المبذولـة عربونًـا لحيـاة أقدمها كلها لك أيها الرب " .

وهكذا حملوا الجسد إلى القبر .

وبعد ذلك بثمانية أيام ألقى أمبروسيوس بجانب قبره عظته الشهيرة عن: "الإيمان والقيامة " .

كان أمبروسيوس رفيقًا لساتيروس لمدة سبعة عشر عامًـا ، ولمـا افتقـده وجد لنفسه بقية من العزاء مع أخته مارسـيللينا التقيـة . وهكـذا لحسـن حـظ

أمبروسيوس عاش مستهل حياة الأسقفية بصعوباتها فى حياة تضيئها محبة أخ وأخت مُحبة عميقة ونقية بدرجة لم يعرفها العالم قط .

المعتقدات السائدة فى عصره :

لقد كان العالم الذى عاش فيه أمبروسيوس مشوشًا . فقد كان يحوى كثيرًا من المعتقدات الفاسدة التى أثرت تأثيرًا سيئًا جدًا على تعاليم المسيحية النقية ... وكان لايزال فى ميلانو مذبح للإله " جوبيتر" ، ومعبد آخر يخص " ديوبانثيو " .

وكانت الآريوسية فى تلك الأيام ، كما قال بعضهم ، بسبب ما فيها من التفسيرات المتحررة طريقًا لدخول المعتقدات الغربية فى المسيحية .

وكانت الوثنية لاتزال تحارب الكنيسة جهارًا فى الهياكل والمعابد ، وتدس فيها سرًا تعاليم فاسدة وانحرافات خُلقية وتلويثًا لأعياد القديسين والنزول بها إلى مستوى المهرجانات والتهريج مثل أعياد الآلهة القديمة. وجنح الشعب إلى الخرافات مثل الاحتفاظ بجزء من السر المقدس كتعويذة ضد غرق السفن أو الأخطار الأخرى .

وكانت بعض القوانين الظالمة مازالت جارية فى الحكومة بالرغم انها كانت "مسيحية " مثل بيع الوالد لأولاده مقابل سداد ديونه ، والتعذيب الوحشى ، وألعاب المصارعين التى أباحها الأمبراطور .

أما فى المجتمع فقد عمّ الفساد والبذخ من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان البؤس الذى لا يُوصف بسبب الغزوات المتعددة التى كانت تشنها قبائل البربر من الشمال (ألمانيا اليوم) .

وهكذا كانت حياة أمبروسيوس الأسقفية صراعًا ضد تلك التيارات كلها. وحملاته لم تتوقف قط ضد الأعداء الداخليين والخارجيين ، العلويين والسفليين .

أما انتصاراته الثلاثة : على الوثنية التى كانت ممثلة فى مذبح النصر بمجلس الشيوخ ، وفى اعتداءات الأمبراطورة يوستينة وجنوها على الكنائس ، وأخيرًا انتصاره على طغيان الأمبراطور ثيئودوسيوس ، كل هذه كانت عواصف فى حياته المملوءة سلامًا ، انتهت بانتصار باهر ، بعد حرب لاهوادة فيها ضد الباطل بجميع أشكاله .

أ ـ فقد نزع معبد آلهة النصر من مكانه فى مبنى مجلس الشيوخ الرومانى وأعيد عدة مرات ، لم يكن المعبد يمثل أوليمبوس فقط بل المبادئ الفاسدة للجمعيات الوطنية فى روما القديمة .

أما الخطيب الذى حاول الدفاع النهائى عن الوثنية ومعابدها أمام الأمبراطور فالنتيان فكان هو سيماخوس ، صديق أمبروسيوس القديم ولكن كان من المستحيل أن يكون هناك صُلح مع الباطل ولو بدا من الظاهر جميلاً . وتغلب أمبروسيوس أيضًا واختفى إلى الأبد أخر رمز سياسى للوثنية المقهورة .

ب ـ أما النزاع مع الأمبراطورة يوستينة (الآريوسية) من أجل الكنائس ، فقد كان الانتصار فيه باديًا منذ أوله ، وذلك عن طريق اقتناع الشعب الموالى لأمبروسيوس ، الذين اعتكفوا بمبانى الكنائس ، وبذلك حفظوها للإيمان المستقيم ، واستمر أهالى ميلانو فى الكنيسة الكبرى ليلاً ونهارًا وظلوا يرتلون ألحان أمبروسيوس الجديدة ، وأمبروسيوس معهم ،

متمسكين بالإيمان ضد موقف الأمبراطور الآريوسى ، أما الجنود المرابطون فى الخارج فقد انحازوا مع الشعب . وأخيرًا خُذلت الأمبراطورة وأُنقذت الكنائس .

جـ - توبة الأمبراطور على يديه :

فى كل تاريخ الكنيسة المجيد الذى هو عبارة عن قصة صراع بين النور والظلمة ، بين الحق والباطل ، بين الرحمة والقسوة ، لايوجد أروع من الفصول القليلة التى احتفظ لنا بها التاريخ عن توبة ثيئودوسيوس والتى تُخبرنا كيف غلب أمبروسيوس الشر عندما جعل فاعل الشر يستطيع أن يغلب نفسه .

حدث فى مدينة تسالونيكى أن عامة الشعب قتلوا ضابطًا من كبار ضباط ثيئودوسيوس . وكان ثيئودسيوس فى ذلك الوقت فى ميلانو ، فاستشاط غضبًا ، وفى سخطه وهياجه أصدر أوامره بأن يتحمل عامة الشعب فى تسالونيكى نتيجة جريمتهم ، وإنما بطريقة غادرة آثيمة فظهر كمنتقم رهيب . إذ دعا المواطنين إلى الساحة لمشاهدة المباريات وهناك كُشفت خطةٍ الغدر والوحشية ، حينما بدأت المذبحة الكبيرة فهلك الألوف على يد الجنود . وأثارت أخبار هذه الخيانة والوحشية موجة فزع فى كافة أنحاء الأمبراطورية .

والعجيب أن ثيئودسيوس كان مايزال مقتنعًا بأنه إنما أتى ذلك انتقامًا للعدالة والمجد الأمبراطورى . حتى أنه آراد أن يستمر فى حضور القداسات فى الكنيسة كالمعتاد . ولكن أمبروسيوس الأمين لله وقف له بالمرصاد ، هذا الذى لايمكن لأية قوة مخلوقة فى الوجود أن تسكت صوته ، فاعلن مقاطعته للقصر الأمبراطورى . ورفض كذلك أن يسمح

للأمبراطور بدخول الكنيسة ما لم يقدم توبة باعتراف علنى عن هذه الخطيئة الجسيمة مع كل إصلاح ممكن لآثار الخطيئة .

وكان موقفه إزاء جريمة الأمبراطور كقاضٍ لايلين ، ولكن بشعور الراعى إزاء الخروف الذى ضل من القطيع ، لم يكن أحد ألطف وأكثر شفقة من أمبروسيوس فى محاولاته لإرجاعه .. بل يندر أن يعامل أحد الآباء ولده العاصى بحنانٍ أكثر منه !! . لقد وضع أمبروسيوس أمام عينيه أن يدين الخطيئة أمام العالم ، وفى نفس الوقت يعيد الخاطئ إلى المخلص ... ولقد فعل الأمرين ، فكتب للأمبراطور قائلاً :

" أيها الأمبراطور العظيم

" إننى لا أنكر أن عندك غيرة ، ومخافة لله ، ولكن عندك حدة فى الطبع إذا أثيرت فليس لها من حدود " .

ولمعرفته بصراع الضمير الذى يعتمل فى قلب الأمبراطور أضاف قائلاً:

" سأتركك إلى نفسك ، فلتعد إلى حقيقتك ، ولتنتصر قوة التقوى التى فيك على عنف طبيعتك " .

ثم يعرض أمامه جريمته بكل ما فيها من الفظاعة ، ويذكره بتجاهله لنداءات الرحمة :

" يمكنك محو هذا العار بتذليل نفسك امام الله . إنك رجل ، وبصفتك هذه ، أتتك التجربة ، فأخرج منها منتصرًا . إنه يمكننا الخروج من الخطيئة بالمرور فى طريق مبلل بالدموع . فلا يستطيع أى ملاك أو رئيس ملائكة أن يمحى هذا الذنب . إنه الرب فقط الذى يقول : " أنا معك " ، هو الذى يمنحك الغفران بواسطة التوبة " .

ثم يكتب لائمًا نفسه قائلاً :

" لو كان عندى بُعد نظر أكثر من هذا ، فربما كنت قد منعته عنك هذا السقوط . وياليتنى أطعت إلهام قلبى بدلاً من الثقة فى رحمتك المعتادة " .

ثم يتكلم عن محبته بحنان زائد قائلاً :

" كيف استطيع أن لا أحبك ، أنت الذى كنت كأب لجراتيان (الأمبراطور الشاب الذى خدمه أمبروسيوس بإخلاصه) " ؟ ..

وترك الأسقف المدينة بعض الوقت - ربما إلى منزل أخته الريفى - ولكنه لما عاد ، بينت الحاشية للأمبراطور بأنه إذا ظهر فى الكنيسة فلن يجسر أمبروسيوس على مواجهته .

وحدث أن حضر الأمبراطور بأفخر ثيابه الملكية إلى الكنيسة !! .

غير أنه قبل أن يخطو عتبة الباب الخارجى للتائبين والموعوظين ، انبرى له الأسقف بشجاعة نادرة قائلاً :

- " أيها الأمبراطور يبدو أنك لم تشعر بعد بفظاعة جريمة القتل التى ارتكبتها . هل تريد أن تتجاهل أنك جُبلت من التراب مثل باقى الناس ؟ . إن السلطة المُطلقة ربما تعميك . احترس لئلا يمنعك ثوبك الأرجوانى من رؤية الضعفات التى يغطيها . إن أولئك الذين تحكمهم بشرٌ مثلك ، بل هم إخوتك قبل أن يكونوا خدامك التابعين لك . فإنه يوجد أمبراطور واحد ، ألا وهو خالق الكل ! . كيف تستطيع التقدم إلى جسد يسوع المسيح ويداك ملطختان بدماء القتلى الذين أرقت دماءهم ظلمًا ؟ الأحرى بك أن تخاف وتمتنع من أن تضيف إلى جرائمك جريمة التجديف ! " .

فأجاب الأمبراطور قائلاً :

- " ولكن داود أخطأ والله سامحه " .

فقال أمبروسيوس :

" إذًا فتقبل النير الذى سيضعه اللـه علـى عنقك . لقد شـابهت داود فـى خطيئته ، فتمثل به فى توبتك " .

ورجع الأمبراطور باكيًا إلى قصره . وظـل ثيئودسـيوس مـع نفسـه فـى أعنف صراع استمر ثمانية شهور . وفى الحقيقـة أنـه نـدم علـى جريمتـه ، ولكـن تملـق الحاشية التـى حولـه التـى اختلقـت لـه المعـاذير فـى قسـوته وسخريتهم من دموع الندم التى كـان يذرفها ، مـع تشـدد أمبروسـيوس فـى عدم التراجع خطوة واحدة عما يطلبه ، كل هذا جعل الصراع عنده مريرًا.

وحل عيد الميلاد باحتفالاتـه القدسية . وجلـس الأمـبراطور فـى قصـره يبكى ، فتقدم منه وزيره روفينوس وسـأله بلهجـة شبه سـاخرة عـن أسـباب حزنه . فأجابه الأمبراطور قائلاً :

- " أنت تضحك لأنك لاتشعر ببؤسى ، إن باب كنيسة الله مفتوح للعبيـد والشحاذيين ولكنه مُغلق فى وجهى أنا فقط ، باب الكنيسة وباب السماء . "

واقـترح روفينـوس أن يذهـب بنفسـه إلـى الأسـقف ويلتمـس الحـل للأمبراطور ، ومع أن أمل ثيئودوسيوس كان ضعيفًا إلاّ أنه سمح بالذهـاب. ولكن مسعاه باء بالفشل ، فقد عاد مكسور الخـاطر . وإذ قـابل الأمـبراطور فى طريقه إلى الكنيسة أشار عليه بـأن يرجـع . ولكـن ثيئودسـيوس – حيـن عرف ذلك - أجاب روفينوس بخشوع حقيقى وبندم صحيح :

- " سأذهب إلى أمبروسيوس وأتقبل منه التوبيخ الذى استحقه .

وهكذا انتصر قلب ثيئودسيوس لمـا قَبِلَ التوبـة ، بـل قَبِـلَ أعمق أنواع الاتضاع والسحق من محكمة ضميره ، وبعد هذا صار الاتضاع الخارجى سهلاً .

وقابله أمبروسيوس فى فناء الكنيسة . وتقبل الأمبراطور كل توبيخات الأسقف ورضى بفترة التوبة المفروضة على كل التائبين ، ثم طلب منه الأسقف ترضية وحيدة ممكنة وهى سن قانون يعطى للمحكوم عليه بالموت مُهلة ثلاثين يومًا (بين الحكم بالموت وبين تنفيذه) وبذا يحمى الأمبراطور وكذلك خلفاءه من إغراء السلطة المستبدة . وبعد نهاية المدة المحددة سمح له بدخول الكنيسة ، وهناك لم يقف ولم يركع بل خر ساجدًا على الأرض باكيًا وصرخ قائلاً : " أيها الرب ها أنا أتمرغ فى تراب بيتك فأردد لى الحياة حسب كلمتك " .

ولم يكن هذا فى الحقيقة انتصارًا لسلطان الكنيسة على الأمبراطورية ، بل كان انتصارًا للحق فى أعماق القلب . وبمجرد أن عاد الأمبراطور إلى نفسه تحت تأثير أمبروسيوس لم ينس أبدًا خطأه ، وأصدر بعد ذلك تشريعات عدة رحيمة لحماية الفقراء والمعوزين . فمثلاً أصدر قانونًا لعتق الأولاد الذين باعهم والداهم أرقاء بسبب فقرهم ، وقانونًا آخر لحماية الضعفاء من قسوة الرجال الرسميين مدنيين كانوا أم عسكريين .

وبينما كانت قصة الأمبراطور تأخذ مجراها ، كان أمبروسيوس منهمكًا أيضًا فى شن حرب من أجل الاعتدال والرحمة فى داخل الكنيسة . ففى مجمع الأساقفة الغاليين (بلاد الغال هى فرنسا الآن) المنعقد فى ميلانو وبتأثير أمبروسيوس ، أصدر المجمع قرارًا بتجريد بعض الأساقفة من رتبهم لتسببهم فى موت برنيكليان الهرطوقى .

وفى الحقيقة كان أمبروسيوس يسبق جيله بأكثر من ألف عام ، بل كان يرجع خلال أربعة قرون إلى كلمات التطويبات على بحر الجليل ، إلى صليب الجلجثة خارج أورشليم .

هذا وقد انتهى النزاع بين الأسقف والأمبراطور ولكن بصداقة لم تنفصم عراها حتى الموت .

إنه لأمر حسن أن نطلع على إمكانية " جمال النفوس " كما تعلمنا هذه القصة . فما أجمل وأشجع النفس التى وبخت أمبراطورًا ليخلص ، بل وما أجمل وأنبل النفس التى استهانت بمركزها الملوكى وقبلت التوبيخ ، وما أجمل نبل الطرفين الذى جعل الثقة المتبادلة والصداقة الدائمة تصير هى النتيجة الأخيرة للنزاع . فصار الأمبراطور المسيحى النبيل يرجع إلى أمبروسيوس فى كل حادثة تقابله بعد ذلك بقية حياته ، حتى أنه بعد انتصاره (انتصار ثيئودسيوس) فى موقعة أكويليا - وهى آخر نصر على الوثنية - لم ينس أن يكتب فى الحال إلى أمبروسيوس قائلاً له إنه مدين له بانتصاره! وأخذ أمبروسيوس الخطاب إلى المذبح،وكتب للأمبراطور قائلاً:

" لقد وضعت الخطاب مع الذبيحة حتى يتكلم إيمانك أمام الله فى نفس الوقت الذى أتكلم فيه أنا بالصلاة !! " .

ولكن اصاب أمبروسيوس القلق لئلا يؤدى هذا النصر إلى إراقة دماء بدون داعى ، ولخوفه العظيم على جماهير الوثنيين المرتاعة فى ميلانو إذ بدأوا يتراخون فى ولائهم ، ذهب بنفسه وقابل الأمبراطور فى أكويليا وركع أمامه متوسلاً إليه بكل خضوع أن يُطلق سراح المهزومين ! فرفعه ثيئودسيوس إليه وعفا عن الجميع . ثم ركع بدوره أمام الأسقف واعلن مرة أخرى أنه مدين له بهذا النصر .

وأسرع أمبروسيوس إلى ميلانو ليكون فى استقبال الأمبراطور الذى جعل دخوله الظافر إلى المدينة فى اليوم التالى . وكان الحماس فى استقبال الأمبراطور منقطع النظير ليس من أجل هذا النصر الذى وحد الشرق

والغرب تحت لواء واحد ، بل بالأكثر جدًا بسبب الرحمة والعفو عن الأعداء التى جعلت النصر كريمًا غير ملوث بالانتقام .

انتقال ثيئودسيوس :

وبعد وقت ليس بكثير انفتحت أبواب الهيكل السمائى غير المصنوع بأيدى بشرية ، أمام الأمبراطور المسيحى التائب إذ كانت صحته متداعية ، وفى ١٩ يناير سنة ٣٩٥ أى بعد خمس سنوات من توبته العلنية ، وبعد بضعة اسابيع من انتصاره فى أكويليا ، توفى ثيئودسيوس مستندًا على أمبروسيوس . وكان اسم أمبروسيوس دائمًا على شفتيه حتى مات. وبوفاته فقد الأسقف أعظم صديق وأخلص رفيق فى العمل من أجل الكنيسة.

ومن فوق المنبر قال أمبروسيوس :

- " لقد ذهب هذا الرجل ليأخذ مُلكًا فى مملكة أعظم من التى تركها ، إذ قد ذهب ليدخل أورشليم السمائية حيث استدعاه يسوع المسيح لتقواه . لقد فارقنا بالجسد هذا الأمبراطور العظيم ، ولكنه معنا لم يبتعد عنا .

وهكذا عبر من العالم هذا الأمبراطور العظيم الذى ترجى فيه أمبروسيوس تحقيق المثالية فى العلاقات بين الكنيسة والدولة .

وقد عاش أمبروسيوس سنتين يعطى فيهما إرشاداته للأمبراطور الجديد، كما فعل من قبل مع جراثيان وفالنتينوس . ولكن الأمل الكبير فى ان يطول عمر أمبروسيوس قد خبا . وبدأت حياته العامة تصبح مثل آخر فصول دراما كبيرة انتهت ضعيفة .

أمبروسيوس وأوغسطينوس :

ولكن هذه الشعلة المقدسة التى لم يُكتب لها أن تنطفئ دون أن يستلم منها النور شخصية فذة أدخرها التاريخ للكنيسة لتظل تضئ إلى مدى الأجيال .. هو أوغسطينوس الذى تقبل من أمبروسيوس سر المسيح .

لقد بلغ الإفريقى العظيم إلى أبعد نقطة فى انحداره إلى عمق البرودة والظلام عند وصوله إلى ميلانو فى نحو عام ٣٨٤م. حيث كان أمبرسيوس أسقفًا منذ سبع سنوات . وكان هذا الرجل يدين بالمانوية ، مغرورًا بفصاحته وعلمه إلى أقصى حد ، مع خطايا ملكت عليه حياته ، الأمر الذى لم نكن لنعرفه لولا أنه سردها ضمن اعترافاته .

جاء أوغسطينوس إلى ميلانوبصفته أستاذًا لعلم البيان ، وإذ كان على صلة بسيماخوس الوثنى ـ الذى كان صديقًا أيضًا لأمبروسيوس ـ فقد رتب الله القدير هذا الوثنى واسطة تلاقى بين أوغسطينوس وأمبروسيوس . ومن هنا بدأ الله يُعد هذه الآنية المقدسة لكى تحمل اسمه عبرالأجيال .

وقد كان استقبال أمبروسيوس لذلك الخطيب الأجنبى الشاب حارًا رائعًا مما جعله يكتسب فى الحال ثقة أوغسطينوس . ولما كان أمبروسيوس نفسه خطيبًا ، فقد ارتاح المثيل إلى مثيله ، ولكن صفة الرعاية عند أمبروسيوس جعلته ينشد فيه الخروف الضال الذى لايهدأ بال الراعى الصالح حتى يجده.

وفى ذلك الحين وصلت مونيكا من إفريقيا تنشد ابنها الذى ما فتئت تطلبه من الله بكل ما أوتيت من إيمان وصلاة ودموع ... وفهم أمبروسيوس فى الحال ما فى قلب الأم ! .

وكان أوغسطينوس كثيرًا ما يذهب إلى الكنيسة فكان يستمع إلى فصاحة أمبروسيوس التى بهرت نفسه وجعلته يتابع عظاته حتى يستوعب فصاحته ليس إلاّ ...

أما العظات التى كان يلقيلها امبروسيوس فكانت تأملات روحية ذات طابع تصوفى عن حياة ابراهيم وعن اسحق ويعقوب .

ولم يلبث أوغسطينوس أن إقتنع بأن حملات المانيين ضد العقيدة المسيحية كانت بسبب سوء فهمهم . فشعر بندم عظيم بسبب مافرط منه ... وكانت والدته أول من أسر لها بمكنون قلبه فسرى فيها شعاع الفرح لما أخبرها بأنه لم يعد تابعًا لعقيدة مانى ، غير أنه لم يكن قد تقبل بعد العقيدة المسيحية . وفى ذلك يكتب أوغسطينوس :

" وضاعفت مونيكا من صلواتها ودموعها قائلة : أيها الرب أتوسل إليك أن تسرع فى خلاصه . وكثر ترددها على الكنيسة حتى أن اسمها صار على لسان أمبروسيوس " .

فقد كان هذا الأسقف معجبًا بها أشد الإعجاب . ولما حاول أوغسطينوس أن يتناقش مع أمبروسيوس بخصوص الإيمان رفض رئيس الأساقفة وأرسله إلى والدته برسالة بسيطة حكيمة ، لأنه كان يؤمن ببركة وجود أم له مثل هذه .. ويا لحكمة أمبروسيوس وسياسته العجيبة ...

وفى رسالة من رسائل الاعترافات ، كتب أوغسطينوس يقول :

" لقد تأسفت لعدم إمكانى الاسترشاد بأمبروسيوس كثيرًا ، لأنى لم أجد أمبروسيوس فى وقت فراغ مطلقًا ، مع أنى كنت فى مسيس الحاجة إليه ".

ومن الواضح أن الأسقف كان يتعمد تجنب المناقشة ، ولكن صلاحه أثر تدريجيًا فى قلب أوغسطينوس .

" لقد وجدت أمبروسيوس سعيدًا ومحاطًا بالمجد ، فحسدته على كل ذلك. غير أنى لم أعرف سعادته الحقة. إن سعادته كانت تكمن فى الرجاء العظيم الذى حفظه من غرور العظمة وفى الصوت الذى كان يتكلم إلى قلبه، وفى البهجة التى كان يتذوقها فى خبز الحياة " .

وببطء أشرق النور على أوغسطينوس ..

وبدأت قيود الخطيئة التى سبقت أن مهدت للكفر تتكسر فقد أرجعته قدوة حياة أمبروسيوس إلى المسيح .

كان يصغى إلى فصاحته . وراقب حياته عن كثب ، حيث تحقق - أكثر من الكلام - من قيمة الصلاح وعظمة السلام الداخلى التى تجلت فى حياته اليومية بين الأطفال والفقراء والمعوزين !.

لقد تأثر ضمير أوغسطينوس تمامًا وانجذب قلبه للمسيح بشدة ، فتوجه فى الحال إلى مونيكا ليسكب عبارات التوبة والفرح فى قلبها ، مبرهنًا على صدق تحوله إلى الله باحترامه وتقديسه للمحبة البشرية الحقيقية التى تجاهلها سابقًا .

وتأجل عماده بضعة شهور وقضى نهاية ذلك العام فى هدوء بالقرب من ميلانو بجوار بيت مارسيللينا يدرس الكتاب المقدس الذى لأجله كان قد تكرس أمبروسيوس وأخته ولاسيما سفر إشعياء ــ عملاً بنصيحة أمبروسيوس - كتمهيد للإنجيل .

وفى الصوم الكبير التالى كان ملازمًا الكنيسة مشتركًا فى ترنيمات أمبروسيوس الملهمة مصغيًا إلى عظاته بشغف عظيم .

ويكتب أوغسطينوس عن ذلك الوقت قائلاً :

" لم استطع أن استنشق الروح إلاّ فى الكنيسة ، فكم تدفقت ألحان كنيستنا هذه إلى قلبى . وكانت الكلمات تستقر فى أذنى فيستقر الحق فى قلبى ، وتسيل دموعى وأجد راحتى وسرورى " .

وأخيرًا فى عيد القيامة (٢٤ أو ٢٥ أبريل سنة٣٨٧م) تقبل أوغسطينوس سر العماد المقدس من يد أمبروسيوس حيث تقابلت هاتان النفسان العظيمتان على ضفة نهر الحياة !!

وبعد ذلك مباشرة غادر أوغسطينوس ميلانو مع والدته ولم يعد يرى أمبروسيوس ، ولكن عظاته وترانيمه المقدسة وحياته التقوية بقيت حية فى قلب تلميذه .

ثم رقدت مونيكا بسلام بعد عماد ابنها بوقت قصير جدًا . وكتب أوغسطينوس وهو فى غمرة الحزن على فقدها يقول :

" لقد وجدت عزائى فى كلمات أمبروسيوس الحقة عن الله الأبدى خالق العالم " .

وكان يقول عن أمبروسيوس :

" كنت أصغى إلى أمبروسيوس المبارك بشغف ، إذ كنت اعتبره أبى لأنه ربانى فى الإيمان وولدنى فى المسيح يسوع ، لقد سمعت خطبه ورأيت أعماله وثباته وتجاربه . إن العالم الرومانى يعرف ذلك أيضًا ويشهد به ويشترك معى فى تكريمه " .

وقد تميز أمبروسيوس بشخصية نشطة فذة عديدة القدرات والنشاط إلى درجة تحير العقول ، إذ أنه كرجل من رجال الدولة قام بأسفار ليضطلع بمفاوضات للصلح بين الممالك ، وكرجل من رجال الكنيسة قاوم أخطاء الأباطرة بحكمة ، وكراع كان يحرس النفوس بصبر ، وكقاض فى محكمة

الأسقفية ضرب أروع مثال فى التأنى فى فحص القضايا والقرارات بدون محاباة . أما خطاباته فتعتبر وثائق هامة للحياة العامة فى ذلك العصر ، كما أنها تكشف لنا أسرار حياة كثير من الكادحين والمتألمين .

كان أمبروسيوس شجاعًا يتكلم ضد ظلم الأغنياء بلا حذر وبعنف أنانيتهم ومغالاتهم فى الترف والرفاهية ، وكان يصب عليهم جام توبيخه . فقد قال :

" إن آخاب قام من القبر . وفى كل يوم يذبح (نابوت) جديدًا " . ثم يسأل : " هل اقتسم الملائكة السماء فيما بينهم ؟ إن الطيور كلها تشارك الهواء فى حرية والأسماك جميعها لها البحر ، ماعدا الإنسان فإنه يسر بعدم إشراك الآخرين فى مسراته " .

وبالرغم من تكدس هذه الاهتمامات ، استطاع أمبروسيوس أن يجد فسحة من الزمن ليؤلف ألحانًا كنسية وترانيم ، بالإضافة إلى دراساته وشروحاته فى الكتاب المقدس وفى كليهما كان يحلق بروحه فى سماء القداسة كل يوم . ومن قوله : " إذا لم نسمو ونرتفع مثل ملاك ، فلنطر مثل سنونو " . أما أمبروسيوس فقد سما فعلاً إلى الله مثل ملاك !!

هذا ولم تكن ترانيمه مجرد أبيات شعرية ومعان موزونة ، بل كانت بمثابة غذاء للروح . فقد أغنى قلب مدينة وأشبع وأروى قلب الجياع والعطاش إلى البر ، حتى سرت كلماته وأنغامه المقدسة فى كل بيت وكل كنيسة .

والتراتيل التى سُميت أمبروسية ، كلها ذات أوزان شعرية قصيرة ولها نغمة واحدة وهى غير مقفاة . إن لغة هذه التراتيل اللاتينية القديمة تسمعها فى الكنيسة وكأنها غذاء طازج آت من السوق حالاً أو من ميدان القتال أو

من المحكمة . ففيها تعبير هادئ ثابت وسلاسة ووضوح فى الكلام ، ولها خاصية الهيبة والوقار التى فى لغة القانون والحرب . تختلف عن الكلام العامى للشعب ولكن لاتختلف كثيرًا عن اللغة الإيطالية الأدبية فى عصرنا هذا وغيرها من اللهجات المختلفة فى ميلانو وجنوه وفينيس .

وكما يخبرنا القديس أمبروسيوس والقديس أوغسطينوس أن الشعب كان يترنم بها أثناء العمل وفى الطريق وفى المنزل ، كما كانت تنشدها مجموعات كبيرة فى داخل الكنيسة .

ومن الواضح أن أمبروسيوس كان مغرمًا بدراسة الطبيعة ففى كتابه المسمى " الهكساميرون " أو " شرح أيام الخليقة " أفكار نيرة كثيرة عن ابداع الخليقة وجمالها وتنسيقها ...

نياحته :

اقترب أمبروسيوس من راحته ، ومع أنه لم يكن قد جاوز السابعة والخمسين.ولكن الجسد الذى تعلل بأمراض شديدة قد أنهكه العمل والكفاح!!

وفى عام ٣٩٧ أى بعد عامين من وفاة ثيئودسيوس ـ توقف عن الكتابة. غير أنه استمر فى قراءاته وتأملاته . وقد حدث مرة أثناء تأملاته أن رآه سكرتيره بولينوس ، وقد توهج وجهه بالنور . وبينما كان يملى على سكرتيره شرحًا للمزمور الرابع والأربعين إذ به يلتفت إليه ويقول :

" إنه لمن المؤلم أن ننتظر طويلاً طلوع النهار الذى فيه يبلع الموت من الحياة . ولكن ـ لحسن الحظ ـ أن سراج كلمة الله لايبرح أعيننا ... استيقظ يارب . لماذا تنام ؟ لأن أنفسنا منحنية إلى التراب ، قم أعنا ونجنا من أجل

رحمتك " . ثم تداعت قواه ، ولم يعد قادرًا أن يعلم أو يتكلم .. واستجاب له الله الذى دعاه فقام فعلاً ونجاه واحتضنه إلى الأبد ...

كان ذلك فى آخر مارس ، حين كان صديق صباه "سيمبليكانوس " يلازمه ملازمة الظل .

وحدث أنه فى أحد الأيام بينما كانا يصليان معًا ، أن رأى أمبروسيوس الرب يسوع المسيح يقترب بابتسامة إلهية ويدعوه لمرافقته فى السماء .. فعلم القديس أن قيوده قد انحلت !!

أما البلاط الأمبراطورى الذى كان يعرف قيمته ، فقد ارتاع عندما علم بقرب منيته . فأرسل إليه وفدًا من أصدقائه حتى يتوسل إليه أن يصلى لكى لايفارقهم سريعًا ! . ووصل الوفد والتف أعضاؤه حول فراشه باكين ومصلين . وتوسلوا إليه أن لايتركهم ... فشكرهم بحرارة وأجاب بعباراته المألوفة :

- " إنى لم أعش بينكم ، ولذلك فإننى أخجل أن أعيش أكثر !!.. ولكن لاأخشى الموت إذ لنا إله صالح ..

وكانت مارسيللينا تجاهد بصلواتها وعنايتها الفائقة به حتى يبقى لها قليلاً أيضًا ...

ولكنه أسلم الروح !...

ففى يوم الجمعة العظيمة ٣ أبريل سنة ٣٩٧ م ، وفى حوالى الساعة الواحدة صباحًا - كما سجل سكرتيره بولينوس : " مد القديس ذراعيه على هيئة صليب ليصلى ، ولم يغير هذا الوضع حتى لفظ آخر نفس ، وكنا نتتبع صلواته بحركات شفتيه ، ولكننا لم نستطع سماع ما كان يقول . وكان "هونوراتوس " قد صعد إلى غرفته فى الدور العلوى ليستريح . وحوالى

منتصف الليل سمع صوتًا يناديه ثلاث مرات قائلاً : " أسرع ، وقم لأنه راحل ! " .

فقام هونوراتس وأعد الجسد والدم الأقدسين ونزل بهما .. وبعد أن تناول أمبروسيوس أسلم الروح !..

واختفت الأرض من ناظريه إلى الأبد ، ولكن انفتحت عيناه للسماء ..

وفى اللحظات الأخيرة حدثت أعجوبة من هذا الراعى الأمين الذى ظل أمينًا على رعيته حتى وقت موته . إذ تجمع بعض الشمامسة فى ركن غرفته يتساءلون من الذى سيخلف أمبروسيوس . واقترح أحدهم سمبليكانوس ، وأجاب آخر أنه كبير السن . وكأنما التقطت أذنا الأسقف الذى ينازع الموت هذا الحديث الذى يختص برعيته ، ففتح فاه ونطق بكلمات مسموعة :

" إنه كبير السن ولكنه فاضل !... "

فارتاع الشمامسة إذ حسبوا أنه حى وأنه سمعهم ، فاختفوا فى الحال . ولكن الكلمات كانت غير مائتة .. فخلف سمبلكيانوس أمبروسيوس !..

وفى يوم عيد الفصح حملوا جسده إلى كنيسة أمبروسيوس الكبيرة ، واحتشدت الجماهير حوله رجالاً ونساءًا من جميع الأديان ، واتحدوا جميعًا حوله رجالاً ونساءًا من جميع الطبقات وجميع الأعمار بل ومن جميع الأديان ، اتحدوا جميعًا بشعور من الحزن المصحوب بالتقدير .

أما هو فقد بدأ يدخل فى بهجة فصح آخر فى الأعالى.

نصوص الآباء التى صدرت :

١٠،١١	: رسائل القديس أنطونيوس (جزءان)	(نفذ)
١٢	: لاتطفئوا الروح - مار فلكسينوس	(نفذ)
١٣	: المسيح فى رسائل القديس أثناسيوس	(نفذ)
١٤	: تجسد ربنا يسوع المسيح - للقديس أثناسيوس	(نفذ)
١٥	: ظهور المسيح المحيى - للقديس أثناسيوس	(نفذ)
١٦-١٨	: الروح القدس (٣كتب) - للقديس أمبروسيوس	(نفذ)
١٩	: شرح قانون الإيمان - للقديس كيرلس الأسكندرى (عمود الدين)	(نفذ)
٢٠،٢٢	: ضد الآريوسيين المقالتان ١،٢ - للقديس أثناسيوس	(نفذ)
٢١	: المسيح واحد - للقديس كيرلس الأسكندرى (عمود الدين)	(نفذ)
٢٣	: رسائل القديس كيرلس (جـ١) إلى نسطور ويوحنا الأنطاكى	(نفذ)
٢٤	: شرح إنجيل يوحنا (جـ١) للقديس كيرلس الاسكندرى	(نفذ)
٢٥	: رسائل القديس كيرلس (جـ٢) من ١ - ٣١	(نفذ)
٢٦	: تفسير إنجيل لوقا (الجزء الأول) - للقديس كيرلس الاسكندرى	(نفذ)
٢٧	: عظات القديس مقاريوس الكبير (طبعة ثانية منقحة)	
٢٨- م٤١	: الاشتياق إلى الله (تفسير المزمور ٤١) لديديموس الضرير	
٢٩	: تفسير إنجيل لوقا (الجزء الثانى) - للقديس كيرلس الاسكندرى	
٢٨- م٢٢	: الرب يرعانى (تفسير مزمور ٢٢) لديديموس الضرير	
٣٠	: أوريجينوس - عظات على سفر العدد	
٣١	: الروح القدس - للقديس أثناسيوس	
٣٢	: ضد الآريوسيين المقالة الثالثة للقديس أثناسيوس	
٣٣	: شرح إنجيل يوحنا - الجزء الثانى - للقديس كيرلس الإسكندرى	
٣٤	: رسائل القديس كيرلس (الجزء الثالث) من ٣٢ - ٥٠	
٣٥	: تفسير إنجيل لوقا (الجزء الثالث) - للقديس كيرلس الاسكندرى	
٣٦	: الأسرار للقديس أمبروسيوس مع سيرة حياته (طبعة ثانية لرقم٢)	



فريسكا للقديس أمبروسيوس أسقف ميلانو
موجودة بكنيسة القديسين صليب وبقطر بميلانو
من القرن الخامس